ريسبشنست

أحمد الحسيني

ريسبشنست / رواية

أحمد الحسيني

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨



دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٩٨٧٧

I.S.B.N:978- 977- 6297- 49- 4

ريبشنست

رواية

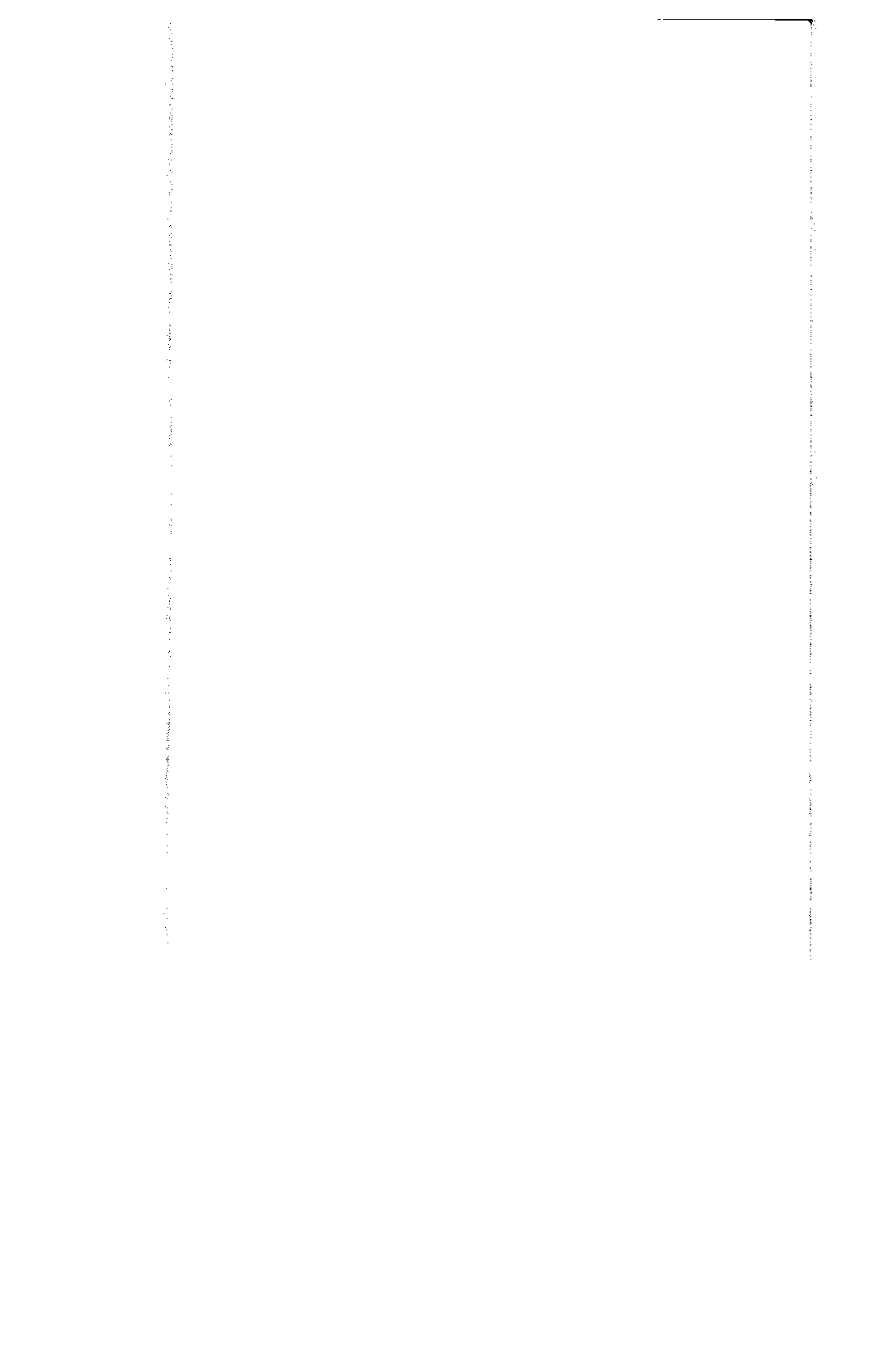
أحمد الحسيني

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



دار اكتب للنشر والتوزيع

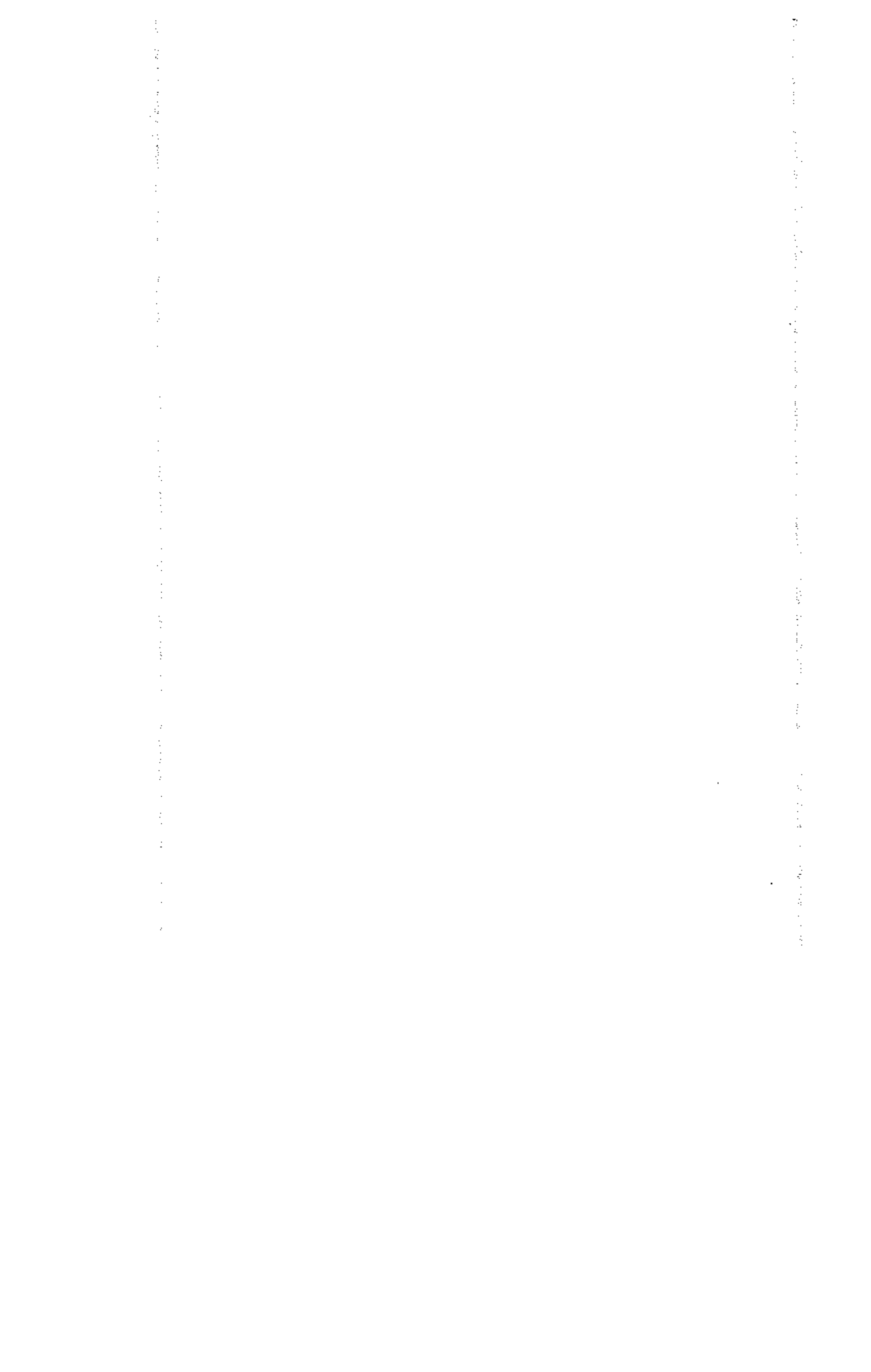


إهداء

إلى والديَّ

وإلى الأستاذ حلمي

سالم.



فاتحة

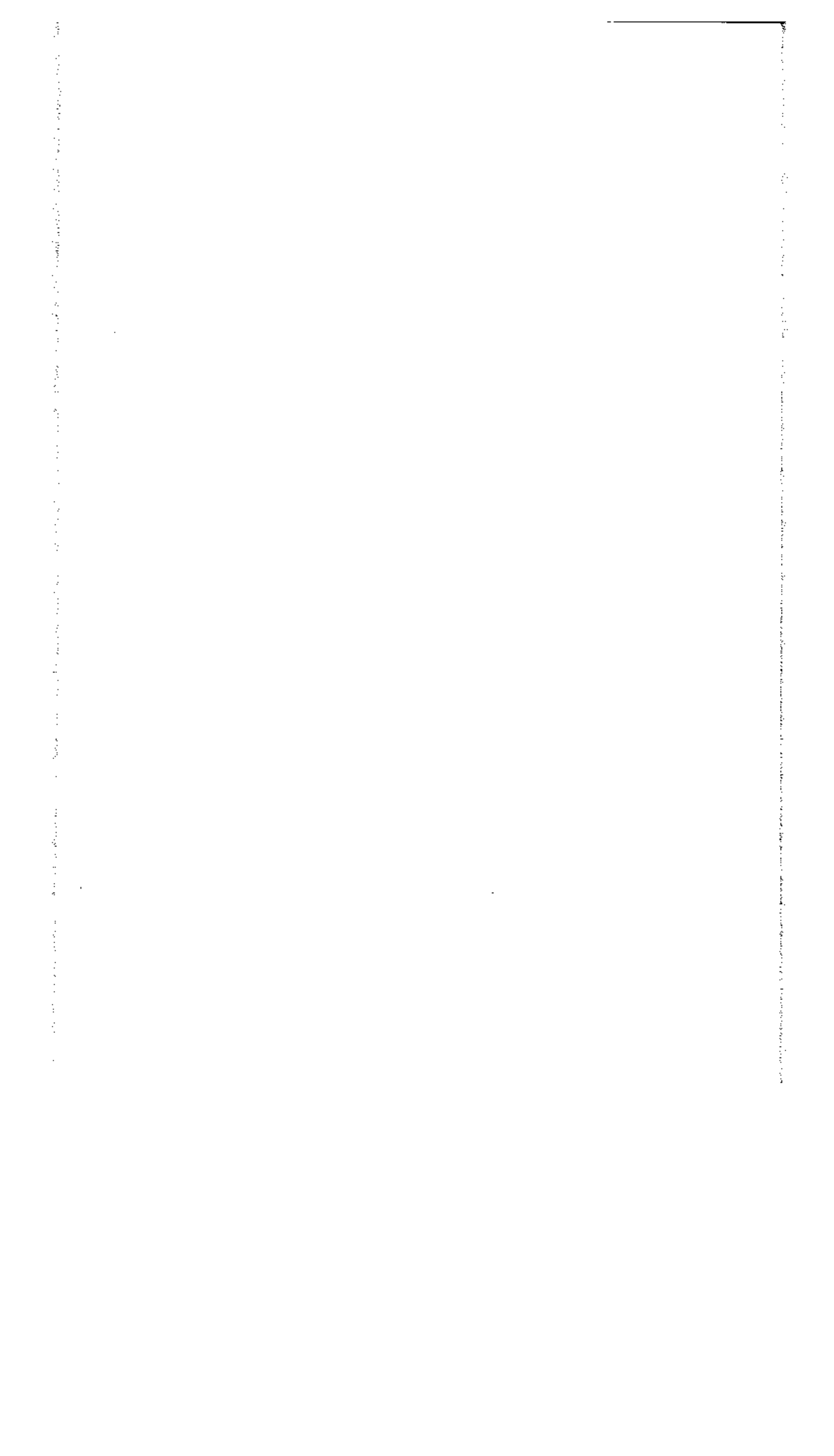
"خير تعريف للإنسان، كائن يمشي على قدمين، وعاق." دستوفسكي "القبو."

"الصراع والمنافسة لا يعرفان الرحمة والبقاء للأقذر." فريدريش درنمات "الشهاب."

"المبدأ الرأسمالى كل واحد يسعي لنفسه وبنفسه، وليخطف الشيطان الضعفاء!!" جورج برناردشو "الاشتراكية والفاشية والنازية."

"الناس لا يبقون على قيد الحياة إلا لأنهم لا يفهمون سوى القليل، ولا يفهمون هذا القليل إلا على وجه ناقص" أناتول فرانس.

"من يكسر التابوه يصبح هو نفسه تابوا!" فرويد "الطوطم والمحرم."



مدخل

ريسبشنت،هكذا يلقبوني،أصحاب المكان يقولون ريسبشنست، وأقولها ريسبسينيست، بنطق فرنسي، ولا أعلم لَمَ أحرص على هذا النطق، ربما لحب الاختلاف و التميز. آدلر يقول: "إن حب التفوق والظهور راسخ في كل إنسان" ولا يسعني الا أن أصف كلامه بالسطحية لأنه لم يبين العلة!

نعود إلى الريسبشنست، فهو موظف يجلس على مكتب، ويلبس في الغالب بدلة، بجانبه هاتف، وربما كمبيوتر، هو بالطبع لا يستخدمه، لكنه موجود لزوم الزينة، وتحسينا لواجهة المكان الذي يعمل فيه.

وذلك الموظف عمله بسيط جدا، فهو يرد على الهاتف، يتكلم مع المتصل ويحاوره، يزوده بالمعلومات أو يضلله أو يأخذ منه، يحاول أن يجذبه بكل الطرق أو يبعده، وغير ذلك من المهام، فهو موظف استقبال، وسكرتير، وعامل إذا لزم الأمر، فلربما طلب منه رئيسه أن يقدم مشاريب للجالسين، تري هل سيرفض؟! إذا لا مانع أن يكون عاملا ايضا!

وهذا أجمل ما في المهنة أنك لا تعرف لك عملا محددا، وأحيانا لا تعرف ما اذا كنت تعمل أم لا!

وموظف الاستقبال دائما ما يكون روح المكان، فإذا أعلنت الشركة -مثلا- التي يعمل بها عن طلب موظفين، توافدت عليه زرافات من البشر كلُهم يريد أن يعمل، فيكون عليه أن ينظم الجمع، وأن يدخلهم الي المقابلة بحسب مجيئهم، وعليه، أيضا، أن يتحمل نظرات الاستهجان والاحتقار التي ينظر بها إليه كل واحد من الجالسين، خاصة إذا طال الانتظار، فتجد اثنين ينظران اليك فجأة، فيتحدثان عن أنفك الطويل أو فمك المعوج أو شعرك الخشن، والحل أن تجلس ساكنا، هادئا، وأن تبادلهم احتقارا باحتقار، لكن في صمت حتي لا يترعج رئيسك!

وعليك، أيضا، أن تتحمل أسئلتهم التافهة، وكلماتهم السخيفة، فإذا قال لك واحد منهم: "هذا القميص لا يليق والبدلة" فقل: "كنت متعجلا فارتديت ما وقع في يدي" فان أصر قائلا: "لكن من المفترض أن يكون الإنسان ذا ذوق، حتي وإن كان متعجلا" فابتسم له كانك تقول أنت إنسان سخيف!

وعليك، أيضا، أن تتحمل رفضهم لما يجري، وأن تعالج كل شئ بصبر، وهدوء - ولا تنسي ان تمزقك فمك بالابتسامة العريض - خاصة إذا طلب منك أحد الحاضرين أن تدخله المقابلة قبل دوره لأن غضاريف ظهره تؤلمه أو لأن أمه مريضة أو لأنه ترك عملا مهما كي ينفعنا بعبقريته، وخبرته الواسعة، واذا لم ندخله سيكون مصيرنا المحتوم أن يتركنا ويذهب!

الأدهي من هذا إذا خرج أحدهم من المقابلة (interview) وقال لك غاضبا: "أف...أعوذ بالله..رئيسك هذا في غاية الغباء" أو قال أحد الجالسين: "لماذا يطيل مع النساء أكثر من الرجال،"فإن كنت محبا للمكان، طيبوبا، أليفا، فسترد على الأول "أنت لا ترقي الي ذكاء رئيسي!" وعلى الثاني "رئيسي هذا قديس،" أما إذا كنت من الصنف الثاني، أي من الكارهين، والساخطين، وأصحاب الثورات الداخلية – وهو الشائع – فسترد على الأول"أنا متأكد من هذا،" وبذلك ستكسب عطفه، وسيحبك كثيرا ،أما الثاني فسترد عليه بضحكة خبيثة مغرضة، وسيرد عليك بضحكة، ودودة، متسائلة، ولربما جاء اليك ليستفسرعن المزيد !

لذا قلت إن الريسبشنست هو روح المكان لأن التعامل يكون معه شخصيا، والناس تظن أنه مسئول عن كل ما يجري في المكان حتي عن غباء رئيسه أو أخلاقه السافلة او طباعه الشاذة!!! والناس تعامله على هذا الأساس ،فاذا حاولت أن تفهمهم أنك مجرد موظف بسيط، وأنك لست أحد أعضاء مجلس الإدارة فلن يفهموا ثم لن يفهموا،وهذه المهنة علمتني أن كل انسان له فهم خاص به، وأن اللغة كثيرا ما تكون سببا في الهدم لا التواصل، وأن طبيعة الافكار التي في رؤوسنا تختلف كلية عن طبيعة اللغة التي نتواصل بها وإلا لسهل على كل منا أن يقول ما يريد على الوجه المطلوب، وبرهنت لي على عبقرية

أناتول فرانس حينما قال: "ان الناس لديهم ذخيرة عالية من الغباء والبله والسخافة،" لكن لا عليك بسخافتهم وغباءهم المهم أن تكون باردا، هادئا ،عندها سيحبك الناس، وربما تعاطفوا معك وقبلوا رأسك بحنان بالغ، وربما تجد سيدة لطيفة أخذت رقم هاتفك ،قائلة بابتسامة حارقة إلي أقصي درجة- بتعبير مورافيا-"ساتصل بك لأطمئن عليك" عندها ستشعر أنك تريد أن تخرق الارض أو تشق السماء أو تهدم المكان على رؤوس أصحابه الصدئة، وبقايا آبائنا المتوحشين تظهر وقت الفرح، والغضب الطاغي !

كيف جئت الي المكان؟

لا أذكر، تحديدا، كم يوما قضيت في هذه الوظيفة؟. أما كيف جئت، فهذا شئ أذكره جيدا، فقد كنت ساعتها ،بحث عن عمل بعد الظهر، فوجدت إعلانا في جريدة "مطلوب مدرسين،" اتصلت فردت على امرأة بصوت دافئ – كصوت المرأة الذي يعقب إرضاء الشهوة – ومن صوتها علمت أنها كبيرة أو بالأدق ناضجة، ذكرت لها أنني تخرجت هذا العام، فقاطعتني بقولها"مبروك،" قالتها بفرح؛ فعلمت أنها ذات ذوق، شكرتها بنفس النبرة، ثم شرحت لها أنني أريد العمل عندهم كمدرس، فأفهمتني انني لا أزال صغيرا، وأن مدرسي هذه المرحلة يجب أن يكونوا من ذوي الخبرة، "لكن عموما عندنا وظيفة ريسبشنست خالية،إن كنت تحب،"وافقت فورا، قالت"أول الأمر ستعمل معنا فترتين ثم فترة واحدة،" "كلام حلو" رددت عليها، فقالت "غدا تأتي في الحادية عشرة صباحا لتستلم الوظيفة" وأعطتني العنوان.

في نفس اليوم كنت على موعد مع صاحب عمل آخر، وفي الموعد سألني الرجل عن كل شئ، حياتي، أهلي، عملي الحالي، وسبب اختياري لهذا العمل – مساعد صيدلي – تكلم معي

حوالي ربع ساعة، قضيتها ممتضا، فالمكان مريب،والمنطقة المحيطة سيئة بجانب الصحراء، والشوارع رملية قذرة، وصاحب العمل يريدني من الثالثة عصرا إلي الواحدة صباحا أي عشر ساعات كاملة، وزاد الأمر صعوبة أنني وجدته - أي صاحب المكان- يحرك جفونه بطريقة مرضية متتابعة (يغلق عينه ويفتحها مرتين أوثلاث في الثانية) فذكرتني حركة عينيه المتتابعة بزميل لي كنت أمقته بشدة لأنه كان يحرك عينيه بنفس الطريقة، فكان ذلك يشعرني بأنه جبان ضعيف، وأنه لا يستحق إلا الاحتقار،ولا أعلم ما الذي دفعني للربط بين حركة ظاهرة، لا إرادية، وبين كون ذاك الإنسان ضعيفا أو جبانا!،ولعلم فقد كان جبانا إلي أقصي درجة.بالطبع أيقظت هذه الحركة ذكريات شتي في نفسي بشأن هذا الزميل القديم، فتجنبت تبعا النظر في عيني الصيدلي حتي لا يظهر على الاشمئزاز أو انفجر ضاحكا في وجهه بسخرية، وشماتة مرضية،كما كنت أفعل مع ذاك الزميل؛ لذا كان انطباعي أن العمل في هذا المكان مستحيل، وأصبح موقفي حاسما بعدما سمعت الأجر فقد كان يريد أن يعطيني ١٥٠ جنيه مقابل نظافة الصيدلية، وتوصيل الطلبات، وخطورة الصحراء، مع تحملي للنظر في وجهه دون ضحك أو شرود!

اليوم التالي ذهبت لأتسلم الوظيفة، أمام العمارة المطلوبة بحثت عن اسم الشركة الذي أعطتنيه المرأة، سألت البواب، نحيف، أسمر، شعره بين السواد والبياض، وفي عينيه العسلية مكر واضح (لم أكن أعلم ساعتها أنني سأصيره زوجا أبديا "بقرون" بتعبير دستيوفسكي وانني سأشاركه في زوجته الرائعة الشهية) سألته عن الشركة فأشار لباب حديد من الأبواب القديمة بجانب العمارة، ثم قال إن اصحاب المكان لم يأتوا بعد، وأنهم لن يصلوا إلا في الثانية عشرة، فقلت:"إنهم أعطوا لي ميعادا في الحادية عشرة" رددت، وأنا أحاشي الشمس المحرقة عن جبهتي، قال:"بمن اتصلت؟"،"قلت:"سيدة لا أعرفها،" "دكتورة هدي؟ "قال،فنفيت معرفة اسمها.صمتنا قليلا، أحسست أنه لن ينفعني، وأنه سيبدأ في استجوابي كعادة أبناء مهنته ،سأل: "حضرتك مدرس؟" قلت: "لا ريسبشن،" فردّ:

" لا لا هو حضرتك ال ... لا أنا ظننتك من المدرسين .. الباشمهندس قال لي ميعاد المدرسين الساعة ١٢ .. على العنون الباشمهندس سيصل الآن . "

طبعا أنا لا أعرف من هو الباشمهندس، ولا غيره، وداخلني شك حول هذه الشركة التي لم تضع لنفسها حتي لافتة على واجهة العمارة، وفكرت في هذه السيدة التي كلمتني بالأمس

هل هي السيدة هدي، فكرت في صوتها الأنثوي الرائع وفي إمكان حدوث شئ بيني وبينها، وفي علاقة هذا الباشمهندس بها.

بعد نصف ساعة من الانتظار،والهلاوس، والخيالات المتأججة، وجدت رجلا وامرأة أمام الباب الحديد، صاح البواب وصل "الباشمهندس" توجهت إليهما مبتسما، وفي نفس الوقت خائفا من أن تكون هذه العجوز هي صاحبة الصوت الناعم الذي خاطبني بالامس!

قلت لهم:"أنا أحمد،تكلمت بالامس لأجل وظيفة الريسبشنست. " نظرا لي ثم ابتسما – في نفس اللحظة – ابتسامة صافية ساذجة دلت على بياض قلوبهم، وعقولهم، قال المهندس بصوت أنثوي صدمني حقيقة: "أهلا، " وقالت المرأة – لحظي التعس-:"انت كلمتني بالامس؟"،هززت رأسي بالإيجاب، "أهلا بك، تفضل" قالها المهندس بعد فتح الباب، فأشرت له ليدخل أولا ثم ابتسمت للمرأة بأدب جنتلماني، فابتسمت بود وحشمة ثم دخلت،أخذت أتاملها بجسدها الذي يشبه الكانجرو أو بعض حيوانات ما قبل التاريخ، محاولا الربط بين سنها الكبير وصوتها الذي أدفئ أذني، ووعدني بالكثير!

لم أعتد ذلك!

لابد أن يعرف القارئ أولا طبيعة العمل والمكان، فهذه الشركة ببساطة هي مركز تعليمي يأتي اليه الطلاب ليأخذوا دروسا في مواد دراسية مختلفة مع أساتذة مختصين، ويدفعون أثمان الدروس بالمقابل، وثمن الدرس يختلف بطبيعة المكان، ففي المناطق الشعبية تقل الأثمان عن الراقية - ويتم تحديد ثمن الدروس بطريقة خفية غامضة، الشيطان وحده هو الذي يعلم كنهها، وذلك لأنه شريك في هذه المشاريع - وبعد انصراف الطلاب توزع الغنيمة بنسبة مئوية ثابتة بين المركز التعليمي والأستاذ، وأقول "الغنيمة" لأنهم يعتبرون الطلاب مجرد مصادر دخل تدرعسلا وحليبا، لا فرق بينهم وبين البضاعة في عين صاحبها، ولا بينهم وبين العاهرة في عين قوادها ،وكما يعرف المزارع كيف يطعم سائمته لتدر أكثر، بالمثل نعرف كيف نخدع الطلبة، وكيف نحتلب ما في جيوبهم، فنحن ولا فخر أساتذة في السرقة!

فتلك المراكز ليست كما يدعي أصحابها "خدمة للمجتمع." فأصحابها- بالطبع- لم يتجشموا مشقة الإنفاق من أجل تحسين العقول، و تهذيب الدوافع الحيوانية الجائعة، ولا لخدمة البلد.

الهدف واضح:كيف تحصد أكبر قدر من المال في أقل وقت ممكن لتكون من أصحاب الملايين- الذين زادوا في بلادنا علي أعداد النمل- وهؤلاء الناس بالطبع يريدون الحال كما هو وأسوأ، سنكمل حديثنا فيما بعد.

لنتكلم الآن عن المركز فهو عبارة عن شقتين- كانتا في الأصل مخزنا- واحدة بها الإدارة، والأخري بها ٣ حجرات مجهزة للطلبة، وإن كانت لا تحتوي علي نوافذ مما يجعلها خانقة،راكدة الهواء، مقبضة، كئيبة، ترهب أن تدخلها وحدك، أما الشقة التي أجلس فيها فمدخلها به عدة كراسي سوداء جديدة، ومكتب لي بكرسي أزرق متحرك، وعلي مكتبي تليفون برتقالي يدل علي فساد ذوق صانعه، وبجانب مكتبي حجرة الإدارة، أمامي مباشرة طرقة مخيفة تؤدي إلي مطبخ، وحمام، وأقصد بمخيفة أنك إذا سرت فيها شعرت بشئ ما فيها غير مريح، شئ يسير خلفك، أنفاسه تلفح رقبتك، ونواياه السوداء مركزة عليك!

وقد حدث أنني في يوم من أيامي الأولي بالمركز، أرسلت العامل ليشتري لي طعاما، وبعد عشر دقائق من خروجه-وباب الشقة بجانبي- وجدته يخرج من المطبخ، ويدخل الحمام ثم يخرج، ويمر بجانبي كأنه لا يراني!

وفي اللحظة التي مر فيها بجانبي شعرت بشئ ما يجثم علي صدري، ويفقدني الإحساس بالتوازن، تماما كما يشعر من يصاب بهبوط يشعر بأن جاذبية الأرض صارت أضعافا، وأنه منجذب لها بكل قواه، أو كما نشعر إذا زارنا كابوس من النوع الذي يضغط علي صدرك، ويجعل الموت بمقربة منك!

بعد دقائق وصل العامل يلاحق أنفاسه، والعرق علي جبهته السمراء، فتأكدت أنه كان بالخارج طول الوقت، وكان السؤال من هذا الرجل الاخر؟

ذكرني هذا الموقف بموقف اخر حدث لي عندما كنت مع أبي باحد الفنادق الضخمة لنأخذ مقاسات يونيفرمات العاملين، أخذنا نبحث عن مكان صالح لهذه المهمة، فلم يجد مدير المبيعات سوى اللوكر الحريمي!

بمجرد دخولنا قال لي أبي: "انتظر هنا،" وتركني ليذهب مع مدير المبيعات إلي مكان ما، بينما ظللت أنا في هذه الحجرة الكئيبة الساكنة منتظرا،والطابق كله -وهو طابق تحت الارض- لا أثر لحياة به، فجأة وجدت امرأة تدخل علي الحجرة ،كأنها خارجة من العدم لتوها،قالت لي باستخفاف، وبطريقة أشعرتني أنها تعرفني منذ فترة طويلة "ماذا تفعل هنا؟!،" فأحسست أنني في مأزق، كنت سأقول لها أننا دخلنا هنا مضطرين و...،

لكنها حتى لم تنتظر إجابتي بل دخلت في ممر صغير باللوكر به حمامان كأنني هواء أمامها، تقدم الوقت وطال دون أن تخرج، فاشتدت بداخلي رغبة التلصص عليها من ثقب الباب، كما كنت أفعل مع من تتاح لي فرصة النظر عليهن من قريباتي الغافلات، فإذا نزل أبي فجاة ووجدني في الممر سأقول إنني أردت دخول الحمام.بالفعل تقدمت ببطء فوجدت بابي الحمامين مفتوحين ولا أثر للمرأة فيهما!

سأترك لكم التأويل فلدي مهام أخري!

لكن لماذا عنونت الفصل بــ"لم أعتد ذلك؟،" لأنني لم أعتد أبدا أن يحدث معي كما حدث في هذا المكان، بمجرد دخولي أشارت لي الدكتورة هدي بأن أجلس، أعطتني دفترا كبيرا، ولوازم الكتابة قائلة: "المركز لم يفتح أبوابه بعد،هذا هو أول يوم لنا،وقد أعلنا عن طلب مدرسين،وسيأتون اليوم وغدا،اصنع جدولا، مقسما الي الاسم والهاتف ونوع المادة التي يدرسها المدرس، كل واحد يأتي إليك تأخذ منه هذه البيانات ثم تدخله إلينا بعد ان تخبرنا هويته!."

هكذا بدأ العمل...

كدت أجن فهي حتى لم تسألني عن اسمي،ولا هاتفي،ولا عنواني، قالت لي ما أخبرتكم به،ثم قالت:المرتب كذا،فرضيت.

المسألة تحتاج الي بيان؛ ففي أي عمل كنت أتقدم إليه يحادثني صاحب العمل فترة ما، يعرف فيها معلومات عني، وعن أسرتي حتي أقول "هل سيزوجني أمه أو أخته؟" وبعد أن يثني علي، ويطري أخلاقي، وبعد أن يعرف قصة مولدي وطفولتي وشبابي يبتسم لي قائلا:"سنتصل بك" ثم يربت علي يدي كأنه يطمأنني بأنه وجد في ضالته؛ فأنتظر أياما وأسابيع و شهورا دون رد منه ولا حتي بالرفض، وفي النهاية أعلم أن هذا الرجل لم يرد تعيين موظفيين بل أراد أن يقلل من الضرائب عليه التي تخصم أثمان الإعلانات، أو أن المعينين في الوظائف محددون سلفا، وأنه فعل هذا لغرض ما، وهكذا!

أما في هذا المكان فقد عملت من أول يوم دون "أبليكشن،" "(وابعت لي علي الايميل،"و"بكرة الانترفيو،" "ويفضل ان يكون معك سيارةbmw وعندك فيلا وشاليه ومعاك مليون جنيه في البنك!"ومثل هذا الكلام الذي استشري في بلادنا كالوباء الخبيث، والذي يشعرك بالعبثية في أنقي صورها!

أسئلة بلا اجابة!

لاحظت -عندما جلست على الكرسي الدوار- أن شعورا غريبا طغي عليّ، فقد بدأت — لاإراديا - أتمثل جلوس أبي علي مثل هذا الكرسي وأحاول لاشعوريا تقليده،كما كنت أفعل صغيرا، حينما كنت أحب أن أجلس علي كرسيه،وأن أفعل كما يفعل، كان هذا وأنا صغير أما الآن فما سر تلك الرغبة القهرية التي تدفعني لتقليده ؟

لا يمكن أن ترجع المسألة إلى مجرد الرغبة في الجلوس علي كرسي مشابه للكرسي الذي كان يجلس عليه أبي، المسألة أعمق من هذا بكثير، إنها ترجع في رأيي - غير المتواضع - إلى صور الأب الماثلة في أعماق الابن دائما، ولو قلتُ المحفورة في تلافيف عقله لكان أفضل.سأوضح الكيفية..عندما كنت في الخامسة عشرة، لاحظت أنني بدأت أتحرك كأبي، وأجلس كما يجلس، وأقلده- واعيا وغير واعٍ-في نظراته، ووضعه ليده علي خده إذا كان شاردا، وقرضه لشفتيه، ومشيه الواثقة المتعالية... وكلما قلدته في شئ يفعله، جاءت في مخيلتي صورته وهو يفعل نفس الشيء،كأنني أتبع نموذجا ارتضيته سلفا،ولا تأتيني الصورة مجردة من الملابسات بل تأتيني ضمن مشهد ما رأيت فيه أبي، وانطبع المشهد في ذاكرتي الغضة.

والآن أجلس علي الكرسي الدوار كما كان يجلس أبي، فإذا كتبت شيئا في الكشكول كتبت بيميني، ووضعت يساري علي الصفحة الخالية، وإذا توقفت عن الكتابة نظرت في السقف مفكرا، راجعا بظهري للوراء ومادًّا رجلي للأمام، وإذا كنت في حالة عادية استندت بمرفقي الأيمن علي مسند الكرسي الأيمن،وجعلت راحة اليسري علي المسند الأيسر ونظرت في الأرض.

كل هذا كان يفعله أبي وأفعله الآن، أفعله شاعرا بانفعلات، ومشاعر متناقضة بين الفخر لأنني أقلد الصورة التي طالما اعتبرتها شيئا يحتذي، وبين الخوف من أكون نسخة منه تحكمت في قوانين الوراثة الجبرية، وأن كل ما أفعل هو تكرير شخص آخر!

فرويد ومن لف لفه فسروا الأمر بعقدة الخصاء، وغير هذا الكلام الذي لا تعرفه سوى الشياطين، وفي رأيي أن المسألة قابلة للتفسير بطريقة طبيعية، وبغير تعسف، كيف؟

في مرة كنت ألعب كرة مع طفل في السادسة تقريبا،أسمر، قصير، وملامح وجهه تدل علي براءة، وغباء موروث،كنت ساعتها مع أحد أعمامي في أحد النوادي، هو في الملعب الآخر مع أصدقائه ومنهم أبو ذلك الطفل الذي أتحدث عنه، وبعد أن

ألهي الكبار اللعب ذهبوا إلى حجرة تغيير الملابس، وأمرونا أن نعد أنفسنا للرحيل، فأخذت زجاجة مياه،كانت في يد ذلك الطفل، أريد أن أشرب، فقال: "هذه زجاجة بابا..هو يريد أن يشرب،"فقلت له: "سيبك منه،" قلتها جادا لكن بطريقة تذكره أنني وهو أصدقاء- أي شركاء نضال ضد الأبوة الملعونة- لكنني لم أتخيل أنه سيبهت وأن ملامحه سيصيبها بله غير عادي، كما لو أنه قد وقف ينظر إلى مخلوق عجيب من كوكب مجاور!

اتسعت عيناه وانفتح فمه ثم قال بكل سذاجة: "دا بابا،" يريد أنني أتكلم عن أبيه باستخفاف، وهو شئ مستحيل عقلا بالنسبة إليه، لأنه يعتقد أن أباه فوق مستوي الاستخفاف أي أنه مخلوق يسكن في السماوات لا يمكن لأحد أن يطاوله بالنقد أو أن يمسه بالسوء، فضلا عن أن يستخف به.وما يهمني في هذا الموقف هو تلقائية الرد، وسرعت،ه كأنه خارج من أعماق ذاك الطفل، والذهول الذي سار في تضاعيف الكلمة كأنني مسست شيئا محرما مقدسا،ولعله كان يظن أن السماء ستمطرني بالصواعق عقابا علي ما فعلت!هذا الموقف عرفني أن لكل واحد منا في نفسه صورة لأبيه. لقد كان في كلامي استهانة بهذا الشئ المقدس وانفعال الولد يفسر علي أنه اندهاش من أن

يمس أحد تلك الصورة أو يتكلم بسوء علي هذا الأب الذي يراه لا يمس، بنفس حتمية القوانين الطبيعية!

والسؤال هنا لماذا ينظر الابن إلى أبيه هذه النظرة المليئة بالإعجاب، والانبهار؟ ولماذا ذهل الطفل عندما مسست صورة أبيه؟ - وأقول صورة عامدا لأن البشر يتعاملون مع الواقع عن طريق صور وأخيلة من صنعهم هم، فهذا الطفل وأنا معه، نظرنا لآبائنا كأنهم ظواهر خارقة، وعاملناهم علي أساس ما في أذهاننا، لا علي أساس الواقع، لذا الموضوعية والحيادية بعيدة عن البشر، فأنا مثلا لي صديق يكره رئيسه في العمل لمجرد أنه يذكرنه برجل كان يكرهه قديما لسوء أخلاقه، رغم أنه متأكد من صفاء قلب رئيسه لكنه يعامله علي أساس صورة ما غير موضوعية، وإنما ذاتية بحتة - هناك تفسير في ذهني وهو أننا نولد صغارا، أعضاؤنا، وقوانا محدودة، ضعيفة، كل هذا يصغر ويتضائل أمام قوة آبائنا، وقدرتهم علي الكلام، والسير، والجري، وعلي حملنا علي الأعناق، وغير هذا مما نعجز عنه، فتترسخ الصورة بداخلنا مذ ذاك الحين علي أن أبانا لا يقهر، وتتولد لدينا معاني خاطئة تولد صورة لا تقل خطأً، لكن هذه الصورة تحكمنا باقي حياتنا، حتي وإن تمردنا علي الأبوة بعد ذلك إلا إن تلك الصورة تظل ثابتة في أعماقنا.

إن لم يكن هذا، فلماذا غضبت، وأنا صغير، عندما قال لي صديق إنه يري أبي إنسانا ضعيفا، بالطبع رفضت كلامه غاضبا. حاولت أن أثبت له صحة رؤيتي، لم يقتنع، فأصابتني نوبة غضب مسعور،انفجرت باكيا، واندفعت بلا وعي لعراكه حتي كدنا نقضي علي بعضنا البعض، رغم أنه كان أقوي أنني لكنني كنت كمن يدافع عن قضية مصيرية!

والدافع لهذا كله أنه أراد أن يحطم صورة يستحيل أن تتحطم لأنني حصنت عقلي دونها فصارت من المسلمات، فأبي ساعتها أقوي الناس، وهو يستطيع حمايتي وأمي وإخوتي، بينما أنا عاجز ضعيف، لذا قول صلاح عبد الصبور "وأبي يثني ذراعه كهرقل،" خير شاهد علي كلامي فكلمة هرقل في رأيي خارجة من أعماق الشاعر، حتي وان لم ينتبه لها لكنها خرجت من مكان ما لتعبر عن رؤيته الحقيقية لأبيه، لذا أظن أن فكرة المنقذ، والبطل، والفارس، كلها متفرعة عن الأبوة.

إليكم هذا المثال، كان لي صديق، أبوه وحش بشري. فوجئت مرة باتصال منه يقول إن أباه في المستشفي، وأمام غرفة أبيه وجدته جالسا يبكي، أخذ بيدي بمجرد رؤيتي، وفتح باب الغرفة علي أبيه لأجد الرجل قد استحال إلى جسد نحيل، ووجه ميت.لا عليكم من كل ما سبق أريد فقط أن تعلموا

سبب بكاء صديقي، فقد اعتقدت أنه يبكي لاقتراب موت أبيه لكنني فوجئت أنه يبكي لأن أباه الذي عرفه ضخما، قويا، أصبح نحيفا، ضعيفا، لا يقوي علي الحركة، إنه يبكي علي الصورة التي في رأسه، ولا يبكي علي الجسد الملقي أمامه!

أرجع إلى النقطة التي بدأت منها. لَم وجدت نفسي مندفعا نحو تقليد أبي، بمعني أدق لماذا أندفع بغير إرادة أو بمسحة من الإرادة نحو أن أكون أبي؟ربما بسبب الوراثة، وربما إحساسي وأنا صغير بأني إذا أصبحت مثل أبي فهذه نهاية الأماني، وقد كنت دائما أود أن أكون مثله، وكنت أقول له دائما: أريد أن أكون مثلك ولكني لا أستطيع." فكنت أشعر بعجز حقيقي، وشعوري هذا جعلني أحتقر نفسي في فترة ما بشدة، وبعدها اقتنعت أنني يجب أن أكون نفسي وكفي، لكن يبدو أن الرغبة بداخلي لم تقتنع بما أقنعت به نفسي، وظلت دفينة داخلي تبحث عن مخرج تتحقق به، وها هي الآن علي هذا الكرسي تتحقق، وتخيل لي أنني أصبحت كأبي تماما، وبمجرد إحساسي بتحققها شعرت بالفخر والفرح، لقد سيطرت أفعاله وحركاته علي طول حياتي بطريقة لاشعورية، حتي أنني في مرة جئت بفرخ من الورق لأرسم وجها ما، أي وجه، لم يكن في ذهني شيء محدد، فوجدت نفسي أخط علي الورق وجهه!

إن علاقة الابن بأبيه محيرة، وكل من عالجوها من الأدباء، والسينمائيون، صوروا صراعات بين أشخاص أو أجيال، صراع رغبات أو اختلاف وجهات النظر، وعادة ما ينتصر الأب، لكن أحدا لم يعلل لنا أسباب هذا الصراع.

المسألة في رأيي مسألة ملكية، أي أن الأب ينظر لابنه على أنه ملكية خاصة، بكل ما تعني الملكية من معان "بيع،شراء،إفناء،" حتى في الإسلام الأب لا يقتل إذا قتل ابنه، والعكس غير صحيح! وهذا الكلام متأثر في رأيي بالطباع القبلية، عندما نشأت الملكية مرتبطة بنسبة الأبناء إلى آباءهم لا أمهاتهم كما كان قبل ذلك،وكما قلت الأب ينظر لابنه علي أنه ملكية خاصة،لذا موضوع اعتداء الآباء علي أبنائهم جنسيا، مبرر في نظري بمبدأ الملكية السابق، فالأب يعتبر أن ابنه ما هو الا فضلة منه، لا أكثر لا أقل، وأنا أسئلكم كيف ننظر إلى فضلاتنا؟ بمنتهي الزراية والاحتقار، كذلك الحال في نظرة الأب إلى ابنه، وقد عاش أبي يقول إن الأب لا يريد من أحد أن يكون أفضل منه سوى ابنه، وبالتجربة وباختباره أكثر من مرة وجدت أن المسألة بعيدة عما قال، وأنه في بعض المواقف كان يغار مني غيرة حقيقية، أو يحاول أن يكسر في إحساس أنني قد

أفوقه في يوم من الأيام في أي شئ، فأنا بالنسبة له-كما قال لي مرة- لا أساوي "خمسة قروش،"وأنه قادر علي سحقي كالصرصار، وما أكثر ما قال لي الكلمة الأخيرة أو هددني بالقتل إن لم أطيعه، فهو يري لنفسه الحق بأن يقتلني ما دمت عاقًا له،وهو بالطبع يريد مني الطاعة المطلقة، يريد أن يلغي إرادتي، وقد عاش أبي يحاول أن يلغيني بكل قوة و أنانية، كان هدفه الأكبر أن أظل مغمض العينين حتي لا أفتحهما عليه أبدا، لذا أنا أعتقد أن الآباء يحملون في نفوسهم من ناحية أبنائهم كِبْرا غير عادي، كما يتكبر الإله علي عباده، وكما ينظر الإله نظرة احتقار إلى عبيده، وإلا لماذا طرد الشيطان من الجنة؟! لأنه حاول أن يثبت أن له نظرة ما أو موقفا ما،فكانت عاقبته الطرد من الرحمة للأبد، كذلك المسألة في العلاقة بين الأب والابن، لذا الصراع بين الأب والابن حقيقي، لأن الابن لا يظل صغيرا طول عمره بل تأتي عليه فترة الشباب والرجولة، ولا ينمو جسده فقط بل عقله وإرادته ورغباته التي قد تعارض مرادات الأب، وهنا يبدأ الصراع متعدد الأطراف، الأب مع نفسه وكبريائه الزائف واحتقاره لابنه،ومع ابنه في نفس الوقت، وكذا الابن صراعه مع أبيه، ومع نفسه، وهناك كلمة لفرويد

صدر بها سلفادور دالي مذكراته وهي "من يتمرد علي السلطة الأبوية فهو بطل"وحتى دالي نفسه قال إن أباه تضايق منه عندما تفوق عليه في إلحاده، ولفرويد كلمة غريبة في تفسير الأحلام لا أذكرها بنصها، مؤادها أن أبناء الطبقة الوسطي لا يريد أبائهم العلو لهم!

الأليفان

مدام هدى وابنها المهندس خالد هما أصحاب المكان الذي رزئت بالعمل فيه، هي تعمل في وزارة السياحة في أي شئ لا أعلم، لكن الواضح عليها أنها تجيد الانجليزية وغيرها، أما ابنها فهو مهندس كمبيوتر عبقري كما سمعت، وهما كما قلت لا يعرفان عني أي شئ سوى أن اسمي أحمد، ربما عرفا هذا بعد وقت طويل، لأنهم كانوا يدعونني محمودا، وأنا زيادة في النكاية بنفسي وبهم كنت إذا اتصلت بهم أقول "ألو أنا محمود" ربما لأنني لم أجد فائدة من أن يعرفا اسمي. كذلك أثناء تواجدي في المكان لا يتكلمان معي، وأنا لا أتكلم معهما لو ظللت علي مكتبي عشر ساعات لما سألني واحد منهم عن شيء، ولا التفت إليّ، ولا علق علي ما أفعله كأنني صاحب المكان وهما غريبان عنه!

والمهندس هذا يعاملني برقة تفوق الوصف، طبع فيه، لدرجة أنه كان يستأذنني في أن يأخذ مني الكشكول الذي أعطاه لي كي يصور بعض الأوراق، تخيلوا يستأذنني في ماله!في مرة كنت سأصرخ فيه "أنت مجنون!هذا مالك!وأنا أعمل عندك لا العكس."

وللحق، هما أغرب مخلوقين رأيتهما في حياتي فهما مرتبطان بعضهما بشدة وبقوة (وأراني ألهث وراء كلمات تعبر عن انسجامهما)، فهما يتحدثان بالعيون والإشارات والغمزات، ومستحيل عليه ان يمضي أمرا بدونها، وهي أيضا!

الاثنان رأي واحد، ومزاج واحد، وإن كانا مختلفين في الشكل فلا يمكن أبدا أن تعرف أنه ابنها الا بالحدس والربط المنطقي بين الأشياء.

كل ما سبق جميل، وجائز، وموجود، تفهمته وتحملته أما ما لم أهضمه أبدا أنهما لا يعرفان أي شئ عن مهنة التدريس، ولا عن التعليم،ولا عن المراكز التعليمية،ولا عن كيفية عملها، وسوقها، وزبائنها. إذا فماذا يعلمون؟! هذا ما أسأل نفسي عنه إلى الآن رغم أن أخبارهم انقطعت عني من فترة طويلة، وإحساسي بعدم خبرتهم جعلني أعمل،وأنا في قلق شديد، كراكب سفينة علم فجأة أن قائدها لا يدري وجهتها، ولا يعلم شيئا عن قيادتها!

الأدهي أن الراكب-الذي هو أنا- يعلم أن السفينة تنحو نحو الصخر وقائدها ينكر ذلك!

وهما كذلك يخططان ويرسمان أشياء لا صلة لها بالواقع، وعلي دائما ان أتحمل تبعة أخطائهما،فقد يتصلا بي ليخبراني

بأمر ما أفعله، وبعد دقائق يطلبان مني أن ألغي ما قالاه لي، وهكذا تتكرر هذه المسألة في اليوم الواحد عدة مرات، وهذا التردد الدائم أقلقني، وعرفني من البداية أن هذا المكان لن يكون شيئا في يوم ما، ورغم أنهما مقتنعان بأنهما قد اختارا موقعا مناسبا للمركز، وجهزاه بأحدث الأجهزة،وأن الطلاب ستنهال علينا من السماء والأرض وأن وأن .....لكنني لم أسمع صوت طالب واحد طوال فترة عملي بالمركز.

كما أنهما، كما لاحظت، لا يعرفان شيئا عن معاملة الناس التي هي فن في حد ذاته،وبما أنهما رجال أعمال فعليهما أن يتمتعا بهذا الفن أو شئ منه وإلا فسيفشلا، فالإنسان مثلا لا يجب أن يكون صورة واحدة في كل الأحوال،كأن يكون جادا دائما أو مهذبا دائما، بل حسب الموقف فهناك أوقات، يجب أن تكون فيها سخيفا أو صلبا أو ضعيفا أو ذكيا لبقا أو متغابيا أو سافلا وهكذا، لكنني لم أجد فيهما شيئا من هذا أبدا، وأنتم تلاحظون أنني أتكلم عنهما كأنهما إنسان واحد لأنهما كذلك بالفعل!

لنتكلم بصورة أوضح إنهما من طبقة ثرية، تبحث عن استثمار لأموالها، لذا فهي تختار "مشاريع مربحة ذات إيرادات مضمونة" كلهم يقولون هذه الجملة،لكن لا تخطيط ولا دراسة

إلا دراسات الأحلام، والكوابيس، والهلاوس، فالمسكينان حسبا أن المركز بمجرد ما يفتح أبوابه؛ ستنهال علينا الطلبة، وأن هؤلاء الطلبة مثاليون طيبون لا أظفار لهم ولا أنياب، بل هم أصدقاء للملائكة الطيبين يعيشون معهم، ويقاسموهم حياتهم، وسذاجتهم الفطرية، وأنهم لا يعرفون شيئا عن المشاعر الشريرة التي تعمر بها قلوب بني آدم...لا..لا...انهم طيبون طاهرون إلى أقصى درجة!

هكذا سيمر الأمر بصورة مثالية، وطبيعية،وستمتلئ الجيوب بأموال الطلبة الطاهرين، وفي نهاية العام ينتهي كل شئ حيث يصعد الطلبة إلى السماء مع إخوانهم الملائكة، ومع بداية العام الدراسي الجديد تبدأ دورة جديدة سماوية صافية!

هذا هو العالم الذي يتخيلون والحياة التي يعتقدون أنها موجودة!هل أصرخ من فوران الغضب في رأسي؟ هل أتمزق من الألم؟ كم كنت أتمنى أن تكون الحياة بهذه الطريقة، لكن الواقع، ببساطة شديدة، صخرة كؤود في طريق أحلام المثاليين الأغبياء تحطمها، وتنسفها،وتصيب هؤلاء المثاليين بالعقد، والصدمات النفسية!

أحلام

قلت لكم إن مدام هدي أعلنت في طلب مدرسين، وفي يومين جاء أكثر من أربعين مدرسا كلهم يريد العمل، كل مدرس يدخل للإدارة يثرثر معهم ثم يخرج وعلى فمه ابتسامة عريضة كأهم قابلوه لا محالة، بالطبع لم أكن أعرف شيئا عن المكان،ولا عما سيحدث فيه بعد ذلك،لقد أشبعوني بأحلامهم، وكنت واثقا فيهم، وفي خططهم.

كما قلت لكم كل مدرس يدخل أكتب اسمه، وبياناته، ثم أدخله إلى الإدارة..وَطّنت نفسي علي الابتسام، والمجاملة،رغم أنني غير ودود بالمرة.حاولت بكل استطاعتي أن أظهر عطفي تجاه من انتظروا لساعات طوال من أجل الدخول.

كل من يأتي يظن أنني أعلم كل شئ عن المركز، فأجد واحدا يسألني عن وظيفة الدكتورة هدي، فأرد بابتسامة هادئة فيها خبث، وقلة حيلة، وأهز كتفي، كأنني أقول "لا أعلم لأنني هنا منذ الأمس فقط،" فيتغاضي عن ابتسامتي ويسأل عن هذا الرجل الضخم الجالس بجانبها، فأرد بأنه ابنها فيما أظن،"ما اسمه؟"، "لا أعرف!."

وتخيلوا كم الإحراج الذي كنت أقع فيه وأنا جالس علي كرسي كالأبله لا أعلم شيئا عن أي شئ!

ومن مكاني كنت أنظر إلى المهندس والابتسامة تمزق وجهه الأسمر السمين الذي يشبه كرة السلة،وهو يظن أن كثرة المدرسين المتقدمين للعمل بشير خير علي نجاح المشروع!

في اليوم الأول جاءني عشر مدرسين.لا أذكر أنني أخذت انطباعا عن واحد منهم،سوى ثلاثة أحدهم مدرس أحياء متوسط الطول، ضخم، مستدير الجسد كالبرميل، عندما سألته عن اسمه رد علي باحتقار شديد، كأنه يقول لي:"أحمد ربك أنني رددت عليك،" قال الدكتور فلان، وأحسست أنه يضغط علي كلمة دكتور كأنه يشعر أنا تمثل قيمته كشخص، بعدها عرفت أنه لا يحمل دكتوراه، لكنه ساقط طب!.الثاني مدرس رياضيات، ذو ملامح فلاحية طيبة، أخذ يحدثني عن نفسه، وأنه يريد أن يحقق ذاته كشخص لكنه لا يعرف، وهذا يسبب له ألما،وفهمت من كلامه أن يعاني من الإحساس بالظلم لأنه يشعر في نفسه بالعبقرية والنبوغ، لكن الحياة والأحياء يهضمون حقه. الثالث مدرس لغة عربية في يده سبحة، وعلي وجهه لحية كبيرة عندما دخل إلى المقابلة أخذ يخدع المرأة وابنها بأنه متفوق في اللغة العربية وخاصة علمي العروض والقافية اللذين

هما أصعب من الفيزياء والرياضيات الحديثة! وبالطبع هو لا يعلم أنني متخصص في اللغة العربية، وقد فكرت أكثر من مرة أن أفضح كذبه، لكني في الحقيقة كنت سعيدا بهذه المأساة و لم أرد أن أفسدها متلبسا بأردية المحامي. وأيضا لأن مظهر الرجل المتسخ "حذاؤه البالى، وقميصه الناحل، وبنطلونه القديم" أوحي لي بأن أسكت فلربما كان الرجل في حاجة إلى العمل فاستغل سذاجة الإدارة وحاول أن يدخل عليها كلاما معقدا في ظاهره حتى يقبلانه.

اليوم الثاني جاءني ثلاثون مدرسا بعضهم أملاني كلمة دكتور،منهم امرأتان توأم،الاثنان نفس الطول والعرض والشكل وصفرة الشعر والملابس الزرقاء والنظرة والضحكة وأخيرا نفس التخصص والدرجة العلمية!

وقد علمت من حديثهما مع المدرسين أن الدكتوراه فيما مضي كانت درجة علمية يحصدها الأكفاء، والآن أصبحت توزع علي الناس كالأوسمة، والألقاب قديما.

هل أوجعت رؤوسكم؟ هل مللتم ثرثرتي الفارغة؟ خذوا إذا المفاجأة إنهم لم يختاروا واحدا من هؤلاء الأربعين،جئنا بهم ومنيناهم ثم أعرضنا عنهم جميعا، والشيطان وحده يعلم الأسباب!

وانهار كل شئ

كما أسلفت توافد المدرسون علينا،وأمضيت اليومين الأولين في عمل دائب، ثم أغلقنا باب استقبال المدرسين وفتحنا باب استقبال الطلبة، وفي نفس الوقت أعد المهندس إعلانا في جريدة أسبوعية، وكان ظنهم أن الاعلان سيجلب طلابا بلا عدد، نزل الاعلان وبقيت عدة أيام لمدة اثنتي عشرة ساعة جالسا علي كرسي لا أفعل أي شئ!

فجأة هبط علينا ثلاثة مدرسين لا أدري من أين، لم يقفوا عندي، لم يسلموا علي،بل دخلوا إلي الإدارة مباشرة، متجاهلين ذلك الرجل الواقف ببدلة أمامهم مبتسما -أقصد نفسي- ولمدة ساعة دار بينهم وبين الادارة حوار محموم، بين هجوم صارخ من المدرسين ودفاع المستميت من الادارة،ثم هجوم بلا دفاع، ثم سيادة من المدرسين واستسلام من الادارة!

تخيل رجلا يأتي إليك بعدما تنفق علي مشروع ما دم قلبك فيقول:"لا...لا..هذا المشروع فاشل، وسيغلق قريبا" هكذا قال الأستاذ فخري- الذي جلس بجانب المهندس أما الآخران فعلي كرسي المكتب- بعد أن أخذ نفسا عميقا من سيجارته ثم نفثه بهدوء وثقة.

حجج الأساتذة الثلاثة، واعتراضاهم، تتلخص في أن موقع المركز سيء جدا،وأهم شئ في مشارع المراكز هو الموقع الجذاب،ثم إن تهوية المكان سيئة جدا مما قد يعرض الطلبة للاختناق، كما أن الدعاية ليست كافية، فرأيهم أن المشروع الناجح في هذا المجال يجب أن يكثر من الدعاية لنفسه لمجرد أن يتشبث اسمه بذاكرة الطلبة، والآباء، وأن يتم موضوع الدعاية عن طريق أوراق مطبوعة عليها اسم المركز، وأشهر المدرسين الذين يعملون فيه توزع في الأماكن المزدحمة، وإشارات المرور، وغيرها.

وقد وصل هؤلاء المدرسون بالإدارة من البلبلة، والتخبط، إلى أن قالت الدكتورة: "نحن تحت أمركم..افعلوا ما ترونه صالحا" قالتها والعرق يلمع علي وجهها الممتلئ بعلامات الخوف، والاضطراب، والذعر الحقيقي، كأنها جالسة مع طبيب قال لها إنها مصابة بمرض خطير لا برء منه، أما المهندس فقد ظهر زبد أبيض حول فمه من شدة جفاف حلقه!

وقد توقعت هذا الاستسلام، فقد استغل الثلاثة سذاجة الإدارة الظاهرة عليهم، وهجموا عليهم بقوة، وشراسة، وقد أفلح هجومهم، وتم لهم ما أرادوا فأخذوا يملون عليهم ما يجب أن يفعلوا، ومن يختارونه من المدرسين، ومن ينبذونه، وهكذا، كما أنني لاحظت أنهم يدلون بالنصائح علي طريقة "إن لم تفعل ما أقول فستغرق ولن تجد نجاة!"

والحقيقة إنني لم أكن متوقعا أن يكون المشروع بكل هذه الأخطاء القاتلة لأنني اعتقدت أنهم- أي الإدارة - قد فعلوا كل ما قال الأساتذة في وقت ما قبل أن أجيء إلى المكان، أما أن يكونوا علي جهل بكل هذا فهذا ما لم أتوقعه،ولذا فقد أعذرت المدرسين فيما فعلوه من كلام بتهكم، وسخرية، فاقت كل حدود الأدب، لأن الخبير عادة ما يكون ثابتا أمام الواغلين علي مهنته.ورغم أنني غضبت من أسلوب المدرسين الثلاث، لكن غضبي كان مبطنا بسرور، وارتياح، لأنني شعرت أن هذا المكان الذي صار سجنا لي، علي وشك الانهيار نهائيا،ولذا انتظرت أن تنتهي جلستهم بفارغ الصبر فيخرج لي المهندس ويقول:"سنغلق المشروع،"وقد تأكدت ساعتها أن المصريين عامة يحبون أن يكون تغيير حياتهم بفعل كارثة أو مصيبة لا دخل لهم فيها، بالضبط كما انتظرت أنا أن ينهدم المكان كي أسترد حريتي لكنني لم أكن لأغير حالي في غير تلك الحالة، ولا أعرف لم أتمني دائما أن تحدث كارثة ما تقضي علي الأرض وما فيها، ولعلك أيها القارئ تمنيت مثلي أن تحدث كارثة ما تغير كثيرا من الأوضاع المحيطة بك، وبالطبع دون أن تصيبك بسوء، لدرجة أنني في فترة ما كنت أتمني أن أعيش وحيدا،

ولأنني أعيش مع أبي وأمي وأخوين وأخت، فقد فكرت كثيرا في إمكانية أن تحدث لهم مصيبة، (تنقلب بهم السيارة، يحترق بهم البيت) وهذا أعيش وحيدا ويكون الأمر بفعل القدر، لأن من حولي لن يحاسبوني علي فعل القدر، لكن سيحاسبوني علي الأمنية التي تمنيتها، ورغم أن تلك الأمنية تبدو لي أحيانا بشعة، وأنانية، وأنني كثيرا ما أبعدها عن رأسي، لكنني لم أجد أبدا أنها دخيلة علي نفسي أو غير طبيعية أو زائفة لقد كنت أشعر أنها رغبة حقيقية قديمة في نفسي، وقد اكتفشت مؤخرا أنني لا أفهم معني أنني أحب أبي وأمي وإخوتي! المسألة في نظري لا تعدو أن تكون حيلة عقلية .بمعني أن مسألة حبي لعائلتي غرست فيّ وأنا صغير علي طريقة "يجب أن أحب عائلتي أول شئ لأنها عائلتي!" أي أنني لقنتها دون أن تكون مسألة غريزية، وذلك شأن مسائل كثيرة نأخذها صغارا علي أنها من المسلمات، وبعد فترة قد نكتشف زيفها أو أنها غير أصيلة في نفوسنا،وقديما كنت إذا رأيت أمي تحدب علي أحد إخوتي أكثر مني؛ فأشعر نحوه بكره فظيع وأتمني له الموت العاجل أو مصيبة تأخذه بعيدا عني، .كنت أتمني هذا بصدق وإخلاص، ومنذ فترة وجدت.أحد إخوتي يفكر بنفس الطريقة، ويتمني للبقية ما أتمناه!

نعود إلى حديث الثلاثة مع الإدارة حيث وجدت الأستاذ فخري يقول للمهندس: "أنا في عمر والدك ويمكنك أن تقول لي يا والدي" فعرفت فورا أن الأمور ستجري كالآتي الأستاذ فخري سيمتلك زمام الأمور، ولن تكون بعد ذلك إدارة، بل سيكون هناك فخري يتحكم في كل شئ، لأنه بمجرد أن يقول رجل لرجل أنا في عمر والدك فهو يقول:" من حقي أن أسحبك كالحمار."

وحدث ما توقعت بحذافيره علي المدي الطويل!

وكان تعليق خالد علي قول فخري ابتسامة سخيفة بلهاء جعلتني أشعر نحوه باحتقار شديد، ورغبة ملحة في البصق عليه، بالتحديد في منتصف وجهه!

قبل نهاية الجلسة خرج واحد من الثلاثة، طويل، رياضي الجسد، مفتول الذراعين،وعلي صدره ويديه شعر أسود كثيف، وجهه عليه شارب ضخم، وجه برجوازي مليء بالجشع، وجه غير إنساني بالمرة!

سألني بابتسامة عن اسمي فقلت: "أحمد،" "علي اسمي" رد بنفس الابتسامة، فابتسمت و لم أعلق،"أحمد إيه؟" سأل،"أحمد حسن" أجبت،"علي اسمي أيضا"رد بتعجب طفولي،"أين تسكن؟" أجبت، فرد بتعجب "بجانبي تماما"، كانت مصادفة

حقيقية تشابه في الأسماء، والعناوين، وحتى في أرقام التليفونات "طالب أم انتهيت؟،" "انتهيت، تخصص لغة عربية،" "ولَمَ لم تعمل في التدريس؟،" "متخوف منه" رددت،"أنت عبيط!" قالها فجأة فابتسمت، أحسست أن كلامه مع الإدارة جعله يشعر بقوته خاصة أنه ظل يمدح نفسه أمامهم، مما جعله يتكلم معي بثقة كاسحة، ثقة تشبه ثقة "فوتران،"في"الأب جوريو" لبلزاك،وبما أنه استحلي دور فوتران،فقد لبست ثياب "راستيناك"، مادمت سأفيد من كلامه،قال:"التدريس هذا منجم!..منجم!..أتعرف الأستاذ فخري أحيانا يكسب كم في الساعة الواحدة؟،"رددت:"لا،""عشرة آلاف جنيه!،" "معقول؟!" رددتت مذهولا، "طبعا..ذكي، وناصح،وفاهم الدنيا ماشية إزاي، وانت تقولي خايف كالخائب،كان عليك بدلا من أن تأتي إلى هنا أن تبحث عن مدرسة علي العموم هذا رقم محمولي إن أردت أن تتصل بي" كان يتكلم بجشع مقزز، لكني لعبت معه لعبة ظريفة جدا، فقد أخذت أنظر له بطريقة إنسان مسكين، حائر، مذهول، ومنبهر من كلامه، وأفهمته بنظراتي، وبإظهاري الاهتمام بكلامه، بأن حديثه قد اكتسحني وأصابني بالاضطراب والقلق مع نظري الطويل في عينيه مظهرا البراءة، فجعلته ينظر لي بإشفاق، وينقلب من كائن وحشي الصفات إلى كائن رقيق عطوف شفيق، أحسست أنه ينظر لي بعاطفة

حقيقية كما نشعر أن بعض الأشخاص قامت لهم في نفوسنا عاطفة خاصة لا نعلم لها تفسيرا، عاطفة غير معلولة، تلقائية، قاهرة.لقد كان ينظر لي بنظرة عطف،وانتصار، كأنه يشعر أنني مرحلة في حياته كان فيها مثلي مسكينا،والآن تغير، وتبدل، وترك تلك الصورة القديمة التي كان عليها، وهو الآن يري شخصا- وهو أنا - علي مثل تلك الصورة. عرفت هذا التفسير من نظرته إلى، بالضبط كما يجمعنا القدر بأشخاص نري فيهم صفات كانت فينا لكنّا تخلصنا منها لعلمنا بأنها مُهلكة، كالشفقة والرقة مثلا، فنجد أنفسنا نبذل لهم النصائح بلا مقابل كي يتخلصوا من تلك الصفات،وفي نفس الوقت نعوض مساعدتنا لهم بإحساسنا بالقوة،وأنهم ضعفاء،ونحن مسيطرون،والدليل علي هذا أننا نتغير معهم إذا شعرنا أنهم تخلصوا من تلك الصفات، وأصبحوا مثلنا، لأنهم يسلبوننا مزية القوة التي شعرنا بها عليهم!

فهو لم يحب في إلا نفسه القديمة، لذا كانت جرأته في الحديث معي مضحكة لا لأن كلامه يثير الضحك، وإنما لأنني كنت أعلم أنه في المقام الأول يوجه حديثه إلى نفسه، وأنه يزجي الحديث لنفسه الضعيفة التي تثور عليه بين حين وآخر، لذا رغم جرأته أحسست أن هناك مرارة في حديثه لا أدري سببها!

- المهم ان اليوم قد انتهي،وخرجت وأنا في غاية اليأس، والإحباط، فكيف لي أن أعمل مع إدارة كهذه؟ كنت متحيرا بين تركهم، والبقاء معهم،ومع هذ الصراع كنت أشعر بشيء ما يدفعني للبقاء معهم، لقد استهوتني اللعبة، استهوتني بحق، وأريد أن أشاهدها حتي النهاية،وأن أعبث مع العابثين، ثم إنني تعلمت في أيام قليلة ما لم أتعلم من الكتب في سنين، وليس من عاش فقاسي كمن قرأ فتخيل....

الدكتورة هدي

كما قلت فهي دكتورة لكن في أي مجال لا أعلم، لكن اسمها كان يوحي لي دائما بأنها مشهورة، فبمجرد سماعي لهذا الاسم سألت نفسي: "أين سمعت هذا الاسم قبل الآن؟."

لنتكلم عنها تفصيليا،فهي متوسطة الطول،عريضة الكتفين، لفاء، ظهرها منحنٍ قليلا كأنها حدباء، في بدايات الستينات تقريبا، لكن وجهها به بقية من شباب، وهي تلبس دائما إما عباءة خضراء طويلة، مفتوحة من تحت المنتصف بسنيمترات قليلة تحتها بنطلون أو تنورة وبلوزة سابغة وعلي رأسها حجاب أبيض لا يتغير.

أما وجهها فأبيض بحاجبين صفراوين، وأنف ممتلئة طويلة، منحنية من أعلاها، وفم بشفاه وردية وأسنان بيضاء ساقط منها الثلاثة الأماميون، وهذا العيب يظهر إذا ضحكت،عدا ذلك فهي تخفيه في الكلام.

سأقف بكم قليلا لأتحدث معكم عن ضحكتها، فأنا لم أر وجها بَشًا كوجه هذه المرأة، إذا ضحكت أو ابتسمت خلت كل جزء في وجهها يضحك معها، العينان، والخدان،والفم، والأنف، بسرعة تتحول كل هذه الأعضاء إلى أفواه مبتسمة

تجبرك على الابتسام، والتمعن في وجهها، وتدفع بها إلى قلبك- أي الدكتورة-فلا تملك إلا محبتها!

وجهها عامة طيب الملامح، إلا أن عينيها حذرتان شاكتان، كان هذا هو انطباعي الأول عنها، وأظن أن هذا الانطباع قد تغير بعد فترة.وقد اكتشفت أن الانطباعات الأولي عادة ما تكون مخطئة، وأننا كثيرا ما ننخدع بحدسنا السيكولوجي،وأظن التجربة هي محك الحدس السيكولوجي أو الانطباع، إما تصححه أو العكس.وهي – أيضا - من النوع الذي يجبرك على احترامها، ربما لأنها بحكم الانتماء إلى طبقة ثرية، وبسبب ثقافتها، لها ذوق ولياقة في التعامل والكلام، حتى الحلي الذهبية التي تلبسها تدل علي ذوق عال بعكس نساء الطبقات الأقل اللاتي إذا انتقلن إلى طبقة أعلي احتفظن بجزء من عادات الطبقة الأقل كما هو معروف.

والدكتورة مرتبطة بابنها ارتباطا عجيبا (abnormal) وهو كذلك مرتبط بها بشدة، كما أوضحت من قبل، فكأن علاقتهما علاقة امتلاك متبادلة، فالدكتورة مات زوجها من وقت بعيد،كما علمت،وهي واضعة كل همها في ابنها، وسأتكلم بعد قليل عن هذه العلاقة التعويضية،أما الآن فسأتحدث عن الأبناء الذين يرتبطون بأمهاتهم بشدة حتى إنهم يفقدون عقولهم إذا ماتت أمهاتهم..!

في مرة كنت جالسا في الأزهر بجانبي زجاجة مياه، ومعي كتب أقرأ فيها، وعلى بعد أمتار مني رجل يلف في المسجد بغير اتزان كالمخمور، ويظهر أنه لمح زجاجة لمياه فأقبل علي يريد أن يشرب.لاحظت أن وجهه مضطرب ذاهل.أخذ زجاج المياه وبدأ يشرب دافعا المياه إلى فمه فكان الماء يسقط علي قميصه وجسده فلا يتحاشاه كأنه لا يشعر به،ثم أعطاني الزجاجة دون شكر ومضي. الحقيقة أنني لم أفهم ما حدث لولا أن رجلا معرفتي به طفيفة شرح لي الموقف،قال لي "لا تندهش،" فابتسمت، "لقد جاء إلى اليوم وطلب مني أن أعلمه قواعد اللغة العربية!،" "اشمعني؟"سألتُ،"لأنه نسيها،أصله مدرس لغة عربية، لكن أمه ماتت وكان متعلقا بها، ومن الصدمة نسي قواعد اللغة، ونسي أشياء كثير غيرها!!!،" أثناء كلام الرجل معي جاء المشهد مرة ثانية أمام عيني فلمحت دموعا في عيني الرجل لعلي لم أعقلها وهو يشرب، ولعلي، لتأثري، وضعتها — أي الدموع – أنا في عينيه بمعني خيلتها، ثم انتبهت ثانية على كلام الرجل وهو يقول إن ذلك الرجل- الذي ماتت أمه-كان يتكلم معه، وهو يبكي كالطفل الصغير!

ومثل هذا الرجل- إذا اتخذناه نموذجا على المتعلقين بأمهاتهم - لا أتصوره إلا خجولا،منطويا،قليل الكلام. ومثل هذا الإنسان يشعر دائما بالعجز، لأنه لا يستطيع دائما أن يحقق نموذج الرجل الذي نتخيله جميعا منذ الصغر وهو الرجل الشجاع، المقدام،فهو يشعر دائما بعجزه عن أن يكون مثل هذا الرجل الذي طالما حلم به، مما يسبب له صراعا بين المثال وبين ما هو عليه، كما يشعر بعجزه عن التعامل مع المجتمع وخاصة النساء، ولأنه رجل فهو بحاجة إلى امرأة تملأ فراغه،وتشعره برجولته،وأقرب امرأة إليه،وهو أمامها عار جسديا،ونفسيا، هي أمه دون شك، أمه التي يعرفها جيدا، ولا يحتاج معها إلى اصطناع المحبة، وفي نفس الوقت هي الإنسانة التي يشعر بالأمان معها، وبذا تتوجه نفسه إليها، لعجزه عن أن يكون رجلا مع غيرها - كل هذا على مستوى لا واعي- ويترتب على ذلك أن تتحرر نفسه معها، فتظهر رجولته، وتجده يحاول دائما أن يعوض معها ما فشل فيه مع غيرها،فيريها قوته، وخشونته، ولربما نسج قصصا خيالية بطولية يحكيها لها،إذ لا يهرب الانسان إلى الخيال الا إذا عوقه الواقع.وقد يقسو عليها ويضربها كما يحدث كثيرا!

فهو يحصر نفسه في حدود أمه، لذا إذا ماتت أنه انهار، وأنا كنت أعرف شخصا من هذا النوع حالم مثالى، وعاطفته متطرفة، يريد إذا أحب إنسانا أن يقاسمه نفسه، وأن يكونا شيئا واحدا، ولأن هذا مستحيل بطبيعة الحال فكان هذا الشخص

ينغمس في الوحدة أكثر وأكثر، وفي نفس الوقت كان يري أمه الشخص الوحيد الذي يحبه ذاك الحب المتطرف، لذا أصبحت أمه هي المعشوق الأول،والأخير، وهي موضوع طاقاته العارمة.

وسأكون صادقا معكم لو قلت إن هذا الذي ماتت أمه كان يبكي على نفسه في المقام الأول، لأن أمه كانت له ملجئا إذا الهدم أصبح عاريا معرضا لكل ما تخافه نفسه!

أما لماذا يفوق حب بعض الأمهات لأبنائهم الذكور عن الحد العادي - لكن بالطبع كلامي لا يشمل نموذج المرأة الفرنسية التي وضعت ابنها في الثلاجة ليكون قريبا منها،ولا يتمرد عليها عندما يكبر - لن أخرج عن نموذج الدكتورة وابنها، وهو نموذج المرأة التي فقدت زوجها، وهي تعوض ذلك الفقد في ابنها، وفقدان الزوج لا يعني الموت فقط، فانصراف الرجل عن زوجته، وإساءة معاملتها لأي سبب كان يعد فقدانا، فهذه المرأة تعوض فقدان الرجل في الابن وتسعى إلى أن تخلق من ابنها صورة للرجل الذي في خيالها أو الذي تتمناه.

سأحكي مثالا واقعيا يتمزق له قلبي كلما تذكرته،فقد كنت أعرف امرأة تسكن فوق جدتي، تزوجت من رجل قاس، كان ضابطا بالجيش ولا يفرق بين معاملة العساكر ومعاملتها، وكان يأتي بالساقطات في مترلهما تحت سمعها وبصرها فإذا اعترضت ضربها بوحشية حتى تفقد الوعي، وفي مرة وصل الأمر إلى

كسره ظهرها! تخيل امرأة تعيش حياة كهذه الحياة، في عذاب وألم مميت.المهم أنها أنجبت بعد فترة ذكرا، فكانت تربيه وتعتني بها عناية فائقة، تريد أن تصنع منه رجلا يقف بجانبها ويقوي ضعفها، كأنها تعده للانتقام من زوجها وفي مرة سمعتها تصرخ فيه "هل رأيت كيف يضربني؟هل رأيت كيف يعذبني؟ يجب أن تكون رجلا..أنت ظهري في الدنيا،أنت سندي" وهو يبكي بقوة !

إذا فهي تنظر إلى ولدها كقوة نزلت من رحمها. لقد أنتجت قوة قادرة علي الحياة والكفاح،قوة ستكون في يوم ما كزوجها،ستكون قادرة على الوقوف أمامه لتأخذ بحقها السليب!فمن حقها إذن أن ترتبط بابنها ارتباطا منشؤه الأنانية، والرغبة في الانتقام.هذا الصنف من النساء كثير والدكتورة إحداهن، وإن اختلفت في كون زوجها قد مات، فكرست حياتها لابنها وأولته كل اهتمامها، فصار- وهذا هو الأهم- في وعيها ابنا، وفي لاوعيها رجلا. وبينهما فرق في نظر المرأة بالطبع، فمثل هذه المرأة تنظر إلى ابنها نظرة مزدوجة، لأنها فقدت رجلا- بأي معني من معاني الفقد-وعندها ابن، فيصير ابنها ابنا ورجلا في نفس الوقت.وهي لا تدرك هذا بصورة شعورية واضحة،ولذا مشاعرها نحو ابنها تكون مختلطة، وهذا كلام معلوم، بين إحساسها ببنوته وإحساسها برجولته،والمنح عندها- إن كان هو الصفة الطاغية علي اي أم - هو الذي قد يسبب لها الاختلاط لأنها تريد أن تمنحه كل شئ عدا الجسد

بالطبع، لكن عدم منحها الجسد قد يكون غير مقبول أو غير مفهوم علي مستوي اللاوعي مما يسبب لها، كما قلت، الاختلاط، والتضارب، ومعاملته مرة على أنه رجل يُستسلم له، ومرة علي أنه ابن!!

لذا أنا أعتقد أن حب الآباء للأبناء والعكس حب غير برئ بالمرة، بالضبط كالأحلام التي قد نعتقد ببراءتها ومع التحليل نكتشف لها مضمونا جنسيا غير برئ!

وأنا أعتقد – أيضا – أن كل البشر يحملون نحو والديهم مشاعر غير بريئة،والعكس،تشكل – تلك المشاعر– جزءا كبيرا من مكبوتنا اللاشعوري،وكما أسلفت أن حبنا نحو الوالدين أساسه عن طريق الاقتناع العقلي لا غير– وفكرة المحارم كذلك – بمعني يجب أن أحب بابا وماما، لماذا؟لا أعلم.بالضبط كعبارة يجب أن أومن بالله،لماذا ؟ لا أعلم. مثل هذا العبارات تنقل كما هي وتلقن كما هي، ولا تعلل ولا يبرهن عليها، كأنها حقائق لا خلاف عليها، مثل: ١+١=٢،رغم أن التأمل في المسألة يجعلنا نصل إلى أن البشر تعاهدوا نقل تلك العبارات دون أن يفكروا فيها مطلقا، لذا كما قلت المسألة عقلية بحتة، بدليل أنك قد تحلم بمعاشرة إحدي محارمك أثناء الليل،وتكون في غاية الاستغراب، والاندهاش، والخوف، لأنك تحس أن تلك الأفكار المحرمة بقوة ذاتية تجعلها محرمة،كما أن من خواص الحديد التأثر

إيجابا بالحرارة، فهذه الأفكار أو المشاعر أنت تعتقد أنها كالمادة، لكنها ليست كذلك لأن حرمتها مكتسبة لا ذاتية!

وقد لفت انتباهي في الأدب العربي أنه يحوي أقوالا مشهورة على شاكلة "طوبي لنا لو كنا مجوسيين" يقولها الأب لابنته؛ على اعتبار أن المجوس كانوا ينكحون أبناءهم. وتشعر أن العبارة محملة باشتهاء مخيف، ورغبة حقيقية لم يستطع صاحبها أن ينفس عنها إلا بالقول. وقد عثرت علي أبيات لشاعر اسمه "عبد الصمد بن المعذل" تعبر عن رغبة عنيفة في ابنته، يقول:

أحب بنيتي حبا أراه # يزيد علي محبات البنات

أراني أهوي منك قرص خد # ورشفا للثنايا واللثات

وإلصاقا ببطن منك بطني # وضما للقرون الواردات

وشيئا لست أذكره مليحا # به يحظى الفتي عند الفتاة

أري حكم المجوس إذا "التقينا"#يكون أحل من ماء الفرات

الأبيات الخمس تعبر تعبيرا فاجرا عن إحساس الشاعر بتحرك مقلق نحو ابنته، والبيت الرابع يعبر- بالتعريض- عن الرغبة في الجنس والمعاشرة ،وقوله "لست أذكره" لا يعني "نسيت" وإنما "لن أذكره،" وكذا كلمة التقينا في البيت الخامس ماذا تعني في رأيكم؟!!!

ولا أظن أن الشاعر قال هذه الأبيات علي سبيل السخرية والمزاح، بل هي أبيات صادقة قيلت تحت وطأة إلحاح، وضغط فكري ثقيل، وأظن أن التعجب الموجود بالأبيات ناتج عن الخوف من هذا التوجه المخيف نحو ابنته.وقد بدأت الأبيات بالتعجب ثم ذكر الشاعر حيثيات هذا الإحساس المُقِضّ، ثم انتهت بالتمني كأن الشاعر نسي أنه يتعجب وبعد أن قال أبياتا ختمت رغبته البيت الأخير!

كذلك ابن العميد أو عبد الحميد الكاتب لأحدهما قطعة نثرية تكلم فيها عن ولد رزقه بعد صبر.فوصف كيف يحبه ويعطف عليه لدرجة أنه يترشف ريقه!!!

لاشك أن هذه الجملة والأبيات السابقة يعبران عن هذا الحب الأبوي المختلط الذي كلمتكم عنه.

والأدب العربي مليء بمثل هذه القطع، وعلام العناء! صفحات الحوادث بها ما هو أبشع وأسوأ!

كلامي هذا يقودني للحديث عن فكرة المحارم التي هي في رأيي فكرة طارئة على البشرية بمعني أننا في الأصل أبناء إخوة وأخوات كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض علي أنها موضوعات جنسية خالصة محللة، وبعد ذلك طرأت فكرة التحريم لأي

سبب كان.المهم أنها لم تكن في طبيعة البشر أو لم تكن شيئا غريزيا يحس به البشر بل طرأت وأصبحت بعد هذا من الأشياء التي نلقنها علي أنها الصواب،والمنطق، وأن الطبيعة البشرية تأبي العكس وتنفر منه،رغم أن بعض النرجسيين يعشقون أنفسهم جنسيا،ويستمنون على أنفسهم، فما بالك بما هو أقل درجة من نفس الانسان!

والقصد أن فكرة المحارم إن لم يلقنها الطفل وتُرسخ في ذهنه منذ الصغر فلن يعرفها أبدا، لأن ليست كالأحساس بالجوع، والعطش، وغيرها من المشاعر.وفكرة المحارم شأنها كثير من الأفكار التي نقدسها مع أننا لا نعرف سبب التقديس، لكننا لا نتصور عكسه لا لأنها لا تقبل العكس؛وإنما لأن عقولنا لم تعود على التفكير في تلك المناطق؛ فأظلمت، وشلت!

هيفاستيوس وأمه

هناك مشهد وجدته في "الإلياذة" يعضد ما قلته عن نظرة الدكتورة المزدوجة نحو ابنها،هو بالضبط آخر حدث في الفصل الأول، عندما تشاجر زيوس وزوجته، وأقسم أنه سيضربها إن لم تكف عن مجادلتها له، فقام هيفستيوس وقال كلاما يقطر مرارة، ويبين عن مدي حبه لأمه، وخوفه من سطوة أبيه.وبعد أن هدأ الجمع جري هيفاستيوس علي أمه وأسر لها بأن تهدأ وإلا سيصيبها غضب أبيه، وسيعتدي عليها، واعتداؤه هذا يسبب له ألمًا نفسيا فظيعا.........إلخ

كل هذا لا يهمني بقدر ما تهمني ابتسامة الملكة بعدما استلمت الكأس من ابنها يقول هومير: (she smiled at this and took the beak from her son still smilling)

عندما قرأت هذه العبارة الأخيرة تبادر إلى ذهني أن ذات الأذرع البيضاء ابتسمت ابتسامة غامضة صامتة شهية كبسمة الجيوكندا،بسمة امرأة وجدت ضالتها، واستوثقت منها، وأنها لم تنظر إلى ابنها ساعتها بل نظرت في الأرض وشردت بعض

الوقت،فقد وجدت أخيرا رجلا يخاف عليها ويحميها بلا مقابل، عبدا أبديا مخلصا، كلبا ستجده وقتما تشاء.وابتسامة انتصار،أيضا،لأن هيفستيوس سيستوي يوما ما عوده، وسيكون أداة انتقام في يدها ضد زوجها.فهي كمن وجد كنزا أو كشفه وسط جماعة فتكتم على أمره وأسر سعادته حتى يتم مراده!!!!!!!!!

وقد أحسست هيفاستيوس، لأنني كنت،ولاأزال، هذا الهيفاستيوس!

الباشمهندس

طويل جدا، ضخم جدا خجول جدا.أعلم أنكم مللتم من "جدا،" لكن ما فعلي مع كلمات اللغة العواجز عن التعبير عما في نفسي، أظن أن فوكنر يقول:"اللغة لا تساوي ما نبذله من مجهود لإخراجها."والعبارة دستوفسكية واضحة، وفوكنر مقلد بارع لدستوفسكي.

هذا هو المهندس خالد مترهل الجسد مع طوله، وضخامته، وله زوائد عند الثديين وتحتهما،كما له ثديان بارزان، وزوائد أخري في جنبه وبطنه.وله كرش ضخم،ومقعدة كبيرة، وملامحه أنوثية إلى حد كبير ومع الثديين الذين لا ينقصهما سوي اللبن تشعر أنه أنثي حقيقية،وربما كان هذا راجع إلى نقص في إفرازات الخصية بعد البلوغ،والمرجح لكلامي أنه يشبه النساء إلى حد كبير حتى صوته تجده ناعما مبحوحا كصوت صوت امرأة في الخمسين من عمرها.

أما وجهه فأسمر سمين، وشعره أسود أثيث، به شعيرات فضية لامعة، وعينه سوداء لامعة، طفلية.ورغم سنه الذي اقترب من الأربعين إلا إنه طفل حقيقي لا يفهم الدنيا أو البيئة المصرية، على العموم، فقد عاش معظم حياته في لندن،

وكندا، والولايات المتحدة،مــما جعله يتصرف في مصر بسذاجة لا يحسد عليها.

وإذا أردت أن تتخيل بسمته الصافية الرائعة فتخيل بسمة طفل أعطيته شيئا أراده، ولن تصدقوا أنه ليلة الحفل-وسأعقد لها فصلا - كان يسير في المكان سعيدا، يكلم نفسه من شدة انفعاله!

وقد علمت أنه عبقري في الكمبيوتر وأنه اخترع برنامجا حسابيا نافس به كبريات الشركات الأمريكية. والأمريكان - كما قال في مرة -"المحسوبية والكوسة من اختراعهم."

والمهندس واحد ممن نطلق عليهم "الجنتلمان،" والتي كانت تعني في أوروبا السيد الثري المتعطل بالوراثة، وإن حُوِّرَ معناها عندنا فأصبحت تطلق على من ينفق بسخاء، وعن سعة، وهو من هذه الناحية جنتلمان حقيقي يعطي بلا مقابل وكرمه يطمع غيره فيه، ومع هذا كل يوصف بالبله والغباء.

العمل والعبودية!

نحن الآن في بداية الأسبوع الثاني من عملي كريسبشنست، الأسبوع الأول مر علي كأسوأ ما يكون بعد يومين من الأحلام والأوهام عملت فيهما بجد ثم انتهي كل شئ، وأصبحت الآن جالسا علي كرسي لمدة ١١ ساعة يوميا أعد الساعات، والبلاط، وأزرار الهاتف، والتليفون، وسطور الكشكول الذي أكتب فيه، عدا ذلك لا أفعل شيئا!

تخيل ١١ ساعة كاملة أنا فيها كالمسجون لا أفعل أي شيء.منتهي الملل، والإحباط،لم يكن أمامي سوى مجالسة عامل النظافة،وسماع حكاياته التي ستعلمون شيئا منها.بعض الأوقات كنت أنظر إلى النمل أتعلم من صبره على تقطيع فرائسه،وقتلها،مهما كلفه هذا العمل من وقت، وجهد. لكنني في النهاية مللت هذه الحيلة فالنمل مخلوق لا إرادة له، ولو له شئ من الإرادة فهي موجهة للعمل فقط، فهو يشبه ترس الآلة لا يئنّ، ولايكل ولا ينظر إليه مع هذا علي أنه شئ مهم بل هو ترس فقط!

لا يمكن يوما أن تجد نملة ثائرة على عشيرتها، تصرخ فيهم: "مللت العمل معكم،"أو نملة تخطب في حشد من النمل

قائلة:"يا رفاق طالبوا بحريتكم. يجب أن نحدد ساعات العمل، والراحة،ويجب أن نخصص مجموعات من أجل الترفيه عن جماهير النمل العاملة."كل هذا مستحيل وعبث، كما لا يمكن أن نتخيل للحمير ثورة على من يلهبون ظهورهم بالسياط.

الحيوان البشري هو الوحيد صاحب الإرادة.كل إنسان يقول هذه الكلمة:"أنا حر أفعل ما أشاء" وبعض الناس قد يدمرون أنفسهم لمجرد الإحساس بأنهم أحرار يفعلون ما يشاءون.هكذا وجدت أنني لن أكون صبورا كالنمل لأن الأخير لا يشعر بما نشعر به، ولا تحيره أسئلة كالتي تحير البشر، إنه مخلوق مبرمج على شئ يفعله ثم يموت حقيرا، أما نحن فلا!

لقد كنت أشعر، وأنا أعد الساعات الطوال أنني عبد ذليل لمن يعطيني المال.والإحساس بالظلم جعلني في عذاب لا يطاق،لكن تُري لو كان المكان الذي أعمل فيه كريسبشنست ملكا لي هل كنت سأمل؟ مستحيل لأنه مالى، خاص بي، ما يعود منه لي وحدي، أما إذا كنت موظفا فقد تُربح من تعمل عندهم آلافا بين راتبك لا يكفي شيئا!

وأنا لا أشك في أن العمل في ظل النظم الرأسمالية نوع من العبودية المزخرفة، والمستترة، الرأسمالى يشتري حريتك بأقل

سعر ممكن، يفقرك ليغني نفسه،كأنه يغتذي على دمك، وقوتك، وأعصابك!

في مرة ذهبت للعمل في إحدي المكتبات لمدة ١٢ ساعة براتب ٤٠٠ جنيه.بدأ العمل في نفس اليوم.كان هناك رجل في الثلاثينات هو رئيس العاملين.من اللحظة الأولي أخذ يكلمني بمنتهي النعومة والأدب،أخذ يحكي لي كيف بدأ صغيرا في هذه المكتبة إلى أن أكرمه الله – بتعبيره – وزاد مرتبه،وأصبح مسئولا عن المكتبة.الحقيقة أنني احتقرته بشدة في نفسي، وأحسست برغبة في البصق عليه، لأنه كلمني عن المكتبة كأنها شركة "مايكروسوفت،" كنت أريد أن أصرخ فيه:"الدنيا تتحرك من حولك، وأنت قابع في المكتبة كالفأر الحقير، وتحسب نفسك قد فعلت ما لم يُفعل،" وعلمت بحق أن السياط لم تصنع عبثا!

المهم بعد أن حكي لي قصة حياته المؤسفة، قال لي إن عملي – أنا – في المكتبة سيكون عملا محددا وأشار إلى ركن زجاجي به أقلام، وأدوات أخر، ثم قال:"هذا الركن خاص بك."بعد قليل وجدته يعطيني خِرْقة (فوطة)، ويطلب مني أن أمسح التراب من فوق المعروضات، كانت الخرقة مفاجئة لي، لكنه شرح لي فلسفة الخرقة المقدسة فالبضائع الملعونة يجب أن

تكون نظيفة دائما من أجل مظهرنا أمام الزبائن،بعد الخرقة طلبوا مني أن أشتري بعد الأشياء للمكتبة من أماكن متفرقة، وبعيدة،فعلمت أن العمل فيه تنظيف،وشراء، وتوصيل.ثم طلبوا مني نقل البضائع من المكتبة الملعونة إلى مخزن مجاور لها بعد عدة شوارع ومن الأخير إلى الأولى أي أنني سأكون حمالا أيضا.ثم أخبرني رئيس العمال أنني سأنظف المرحاض مرتين في الأسبوع!

بالطبع هو يريد أن يفاجئني بكل شيء، ويفلسف لي كلّ شيء،حتى يقتل اعتراضي،وحتى أدخل معه في الدائرة ولينطبق علي ما ينطبق على البقية.

زاد علي كل هذا أن المكتبة بها قدر لا بأس به من الكتب،والحق أنه وجودها صبرني على ما أنا فيه،عندما فوجئ بي أحد لعاملين وأنا أقلب كتابا،بالطبع نهاني عن فعلتي الشنيعة بظرف،واستخفاف،بالطبع هو لم ينبهني حبا في، ولا رغبة في المحافظة على قوانين المكتبة،وإنما فعل هذا كراهية وحقدا لأنني أفعل شيئا هم لا يفعلونه، فهو يريد مني أن أكون عبدا،مغمض العينين مثله!لم آبه لكلامه،فجاءني رئيسهم،وأفهمني أن صاحب المكان ينهى أي واحد عن قراءة شيء من الكتب المعروضة.وحاول أن يشبه هذا لي بمن يملك محل طعام،هل يأكل من رأس ماله شيئا؟!كذلك المعروض

هنا، هو رأس مالنا كيف نستعمله. هل رأيتم حجة أفحم مما قال!!.لاحظت أنه يريد محاورتي على طريقة سقراط في المحاورات الأفلاطونية قلت له بمنتهي القرف:"إن المَثَلَيْنِ ليسا واحدا،لأن الكتب سلعة لا تستهلك بالقراءة كما يستهلك الطعام،فأنا لن أضيع السطور أو أخفيها بمجرد إمرار عيني عليها، ثم إنني اقرأ وقت الراحة."

بالطبع لم يعجبه لم يرض الأستاذ أفلاطون ردي، وقال إن هذا هو الموجود فتركت المكان كله،لأنهم يريدونني عبدا مسجونا،ينفذ أوامر السادة دون سؤال أو اعتراض،ولماذا السادة لنقل الآلهة فهي الأدق.

لنرجع إلى مثال المكتبة من الأول،ما هو التفاق المبرم بيني وبين صاحب المكتبة؟أن أبيع فقط فإذا كان تراب على المعروض فلا مانع من إزالته،أما أن تدخل هذه الأعمال الأخري في عملي وتعتبر واجبا علي لا نقاش فيه دون زيادة في الأجر،فماذا نسمي هذا الكلام تباله أم تغابي،ألم يكن قادرا علي جلب عامل للنظافة، بالطبع قادر، لكنه لم يفعل توفيرا للنفقات فلا مانع إذا من اعتصاري،والعاملين معي دون شفقة، إلا كشفقة مسيو "جرانديه" علي خادمته في قصة بلزاك "أوجيني."

إنه يشفق لأن الشفقة غير مكلفة لن يبذل في سبيلها مالا.

الملعونة يجب أن تكون نظيفة دائما من أجل مظهرنا أمام الزبائن،بعد الخرقة طلبوا مني أن أشتري بعد الأشياء للمكتبة من أماكن متفرقة، وبعيدة،فعلمت أن العمل فيه تنظيف،وشراء، وتوصيل.ثم طلبوا مني نقل البضائع من المكتبة الملعونة إلى مخزن مجاور لها بعد عدة شوارع ومن الأخير إلى الأولي أي أنني سأكون حمالا أيضا.ثم أخبرني رئيس العمال أنني سأنظف المرحاض مرتين في الأسبوع!

بالطبع هو يريد أن يفاجئني بكل شيء، ويفلسف لي كلّ شيء،حتى يقتل اعتراضي،وحتى أدخل معه في الدائرة ولينطبق علي ما ينطبق على البقية.

زاد علي كل هذا أن المكتبة بها قدر لا بأس به من الكتب،والحق أنه وجودها صبرني على ما أنا فيه،عندما فوجئ بي أحد لعاملين وأنا أقلب كتابا،بالطبع نهاني عن فعلتي الشنيعة بظرف،واستخفاف،بالطبع هو لم ينبهني حبا في، ولا رغبة في المحافظة على قوانين المكتبة،وإنما فعل هذا كراهية وحقدا لأنني أفعل شيئا هم لا يفعلونه، فهو يريد مني أن أكون عبدا،مغمض العينين مثله! لم آبه لكلامه،فجاءني رئيسهم،وأفهمني أن صاحب المكان ينهى أي واحد عن قراءة شيء من الكتب المعروضة.وحاول أن يشبه هذا لي بمن ؟الذ. محل طعام،هل يأكل من رأس ماله شيئا؟!كذلك

المعروض هنا، هو رأس مالنا كيف نستعمله. هل رأيتم حجة أفحم مما قال!!.لاحظت أنه يريد محاورتي على طريقة سقراط في المحاورات الأفلاطونية قلت له بمنتهى القرف:"إن المَثَلَيْنِ ليسا واحدا،لأن الكتب سلعة لا تستهلك بالقراءة كما يستهلك الطعام،فأنا لن أضيع السطور أو أخفيها بمجرد إمرار عيني عليها، ثم إنني اقرأ وقت الراحة."

بالطبع لم يعجبه لم يرض الأستاذ أفلاطون ردي، وقال إن هذا هو الموجود فتركت المكان كله،لأنهم يريدونني عبدا مسجونا،ينفذ أوامر السادة دون سؤال أو اعتراض،ولماذا السادة لنقل الآلهة فهي الأدق.

لنرجع إلى مثال المكتبة من الأول،ما هو التفاق المبرم بيني وبين صاحب المكتبة؟أن أبيع فقط فإذا كان تراب على المعروض فلا مانع من إزالته،أما أن تدخل هذه الأعمال الأخري في عملي وتعتبر واجبا علي لا نقاش فيه دون زيادة في الأجر،فماذا نسمي هذا الكلام تباله أم تغابي؟ألم يكن قادرا علي جلب عامل للنظافة، بالطبع قادر، لكنه لم يفعل توفيرا للنفقات فلا مانع إذا من اعتصاري،والعاملين معي دون شفقة، إلا كشفقة مسيو "جرانديه" علي خادمته في قصة بلزاك "أوجيني."

إنه يشفق لأن الشفقة غير مكلفة لن يبذل في سبيلها مالا.

لذا قلت إن العمل في أغلب صوره عبودية مقنعة إلا أن تكون حرا، تعمل لنفسك فقط.

أما أن تعمل لحساب غيرك فأنت تبنيه وتهدم نفسك، وهذا يشبه وصية مكيافيللي للأمير بأن لا يقوي غيره لأنه في الوقت نفسه يضعف نفسه!

ليلة الحفل

قبل نهاية الأسبوع الثالث دعت الإدارة المدرسين العاملين بالمركز - والذين تم انتقاؤهم بعناية ليوافقوا رغبات المدرسين الثلاثة- حتى يتم الاتفاق على جدول العمل بالمركز، وحتى أكون أنا على علم به لأجل استقبال المكالمات التي لا ولن تأتي أبدا!

لم أُسَر أنا وكمال العامل بالنبأ،فقد توقعنا أن تفصح الإدارة عن شخصيتها، وأن تكون أغلظ في تعاملها مع هؤلاء الجزارين، بدلا من أن تدعوهم إلى حشو بطونهم!

في السابعة مساء دخلت علينا الدكتورة وابنها، في أيديهما علب الجاتوه والبسكوت.وفي ثوان تكهرب الجو،فتحنا الأنوار،رصصنا الكراسي،كل شئ نظيف،لامع،وها نحن على استعداد.

لاحظت شيئا غريبا وهو أن الدكتورة تتجنبني بصورة واضحة، لا تنظر ناحيتي ولا تتكلم معي!

ماذا فعلت؟ لا شيء، حتى بعد انتهاء الحفل خرجتْ دون التفات إلي،ولاحظت أنها متعمدة لما تفعل، وأن ملامح العداء مرتسمة علي وجهها!

والآن وأنا أسجل هذه الذكريات اكتشفت التفسير، ففي الأيام الأولى من مجيئي،كنت أتكلم مع المهندس كثيرا، وأتباسط معه،وكان كثيرا ما يطري علي قوة ملاحظتي، وربما هاتفني لأكثر من ساعة،وكنت أجد في نفسي الجرأة على توجيه اللوم إليه إن أخطأ في شيء ما،وصار يسمع نصائحي،وكلامي - وإن كان سينقلب علي فيما بعد بسبب تأليب فخري له ولأمه علي،وبسبب إسرافي في لومه، وانتقاده، خاصة على ضعفه أمام فخري، وسخرية الأخير منه - لأنه ممن يسهل عليك أن تقودهم بسهولة، لذا بدأت الغيرة تدب في قلبها من ناحيتي، إنها معتادة أن يكون لها وحدها، دون شريك من أي نوع، أظن أنكم لن تعترضوا على كلامي إذا علمتم أنه لم يتزوج إلى الآن!!!

وعلى ذكر، هو في دخيلة نفسه غير راض عن تحكم أمه فيه لكنها أوصلته إلى مرحلة الخضوع التام لها بحيث صار اعتراضه شيئا لا يتعدي تقطيبة جبين أو زفرة .

- في ساعة واحدة اكتمل العدد، جلسوا جميعا في غرفة الإدارة حتى ضجت الحجرة، فحمدت الله في نفسي أنني لم أكن مع المدرسين ساعتها لأنني شعرت بعداء شديد نحو كل فرد في المكان.اضطررت أنا وكمال العامل إلى الخروج إلى الطرقة التي في جانب العمارة، والمنتهية بالباب الحديد المطل

على الشارع مباشرة،أخذنا طبقي جاتوه وزجاجتي مياه غازية،وعلى أثرنا جاء مسئولي ورق الدعاية بورق الإعلانات والدعايا للمركز، وضعا الورق في الداخل،وبعدما أنجزا حسابهما أصر فخري على استبقائهما كأن المكان ملكه، وأمر لهما بمثل ما أخذ الجميع ثم أمرهما بألا ينصرفا لأن هناك شغل هام يريد أن يحدثهما بشأنه، فأطاعا بلا تردد،وكان واضحا أن له تأثير فظيع عليهما.

أخذت أتحدث مع كمال والاثنان بعيدان عنا.فجأة أقبل عليّ أحدهما بينما ذهب الآخر إلى الحمام.الذي أقبل علي متوسط الطول،جسده ممتلئ قليلا،مظهره يدل علي أنه متعلم، وجهه مستطيل،بشعر أسود لامع به شعر فضي،مرجل للخلف بالشعرة،ووجهه به لحية خفيفة،وشارب،مدهونين بعناية،وعيناه سوداوان حزينتان حمراوان من قلة النوم والإرهاق،شأن كل من يريدون أن يخرجوا إلى السطح بسرعة.

الشئ الوحيد اللافت للانتباه فيه هو حركة فمه العصبية، فشفتاه تتحركان كل عدة ثوان بطريقة عصبية تشنجية لاإرادية،وكلامه يخرج من فمه مجزئا فيقول مثلا:"إس إس السلام عليكم،" وأظن أن هذه اللجلجة راجعة إلى عقدة، ما أي أنها ليست عضوية ولكن نفسية.

المهم أنه أقبل علي دون مقدمات قائلا: "إب إب إبراهيم محمد.ليسانس حقوق،وبكالريوس خدمة اجتماعية،عندي شركة ا س اس استيراد وتصدير، وأورد للحكومة،والقطاع الخاص،وأكسب جيدا والحمد لله..الحمد لله...الحمد لله."

كرر الجملة الأخيرة بسرعة ثم ابتعد عني دون أن ينتظر مني تعليقا،ولا جوابا،ولا إشارة، بالضبط كما يختارك أحد المجانين من بين عشرات الأشخاص ليقول لك شيئا!

وقفت متعجبا،وسعيدا،بهذا الرجل الغريب،وتذكرت موقفا مشابها راقني كثيرا،فقد كنت واقفا في الكلية منتظرا المحاضرة،فجأة أقبل علي أحد الأشخاص، لم أره من قبل،ولا أعلم من أين أتى، وقف بجانبي قليلا ثم قال: "بس يا سيدي وجئنا به من المستشفي الآن،" وكلمة "بس" في هذا الموقف لا تقال إلا لاستئناف كلام سابق، المهم أنني كنت في حالة نفسية رائعة،ومزاج ساخر مشاغب راغب في الشجار- وكثيرا ما نقع في هذه الحالة خاصة إذا كنا من النوع الجاد من الأشخاص،بعض الأحيان تجد في نفسك رغبة عارمة تحرك إلى العراك مع أي مخلوق أو في إحداث جلبة وضوضاء دون داع . أو في الإتيان بشيء غريب كأن تخلع ثيابك، وتنام في منتصف

شارع مزدحم- لذا رددت عليه :"يا راجل! بجد!هل جئتم به؟ أنا لا أصدق."

"والله كما أقول لك"

"لا لا أنا لا أصدق"

"والله والله حتى اسأل فلانا وفلانا،" وسمى لي أشخاصا، فكدت أنفجر من الضحك، لكنني أمسكت نفسي حتى أري عما سيسفر عنه الحديث،واتضح أنه ذهب بأحد الزملاء المشلولين إلى المستشفي وجاء به، وأهم رفضوا في الجامعة أن يعطوه دعما بالكتب بزعم أنه جاء بعد الميعاد،رغم أهم يسرقون أموال الدعم و، إلخ. قال هذا ثم تركني وذهب!

بعد قليل جاء مسئول الدعايا الآخر، اسمه "عماد،" طويل، رياضي الجسد، حليق الوجه، أسمر اللون، وشعره أسود قصير مرجل للخلف، وأهم ما فيه تقريبا هما عيناه البنيتان الجذابتان، هاتان العينان جذبتا انتباهي طوال فترة حديثي معه، خاصة إذا توجه بحديثه إلي وجهت إليه عيني،وثبت النظر عليهما. ساعتها لم أدر لم أنجذب نحو هاتين العينين الأنوثيتين بهذه الطريقة.إن فيهما شيئا غريبا، براءة وخيلاء وكلام كثير، كنت متأكدا أهما تذكرانني بشيء عزيز علي، وأنني رأيتهما قبل ذلك فحازتا مني نفس الانتباه!

بعدها تذكرت أن نفس العينين كانتا لفتاة كنت أحبها وأنا صغير، جارة لنا، أكبر مني بأربعة أعوام.كنت أشعر نحوها بعاطفة متناقضة، أخاف عليها، وأقدسها، كأخت، وفي نفس الوقت أشتهيها بكل جوارحي،كل ما فيها عجيب الوجه، والعينان،وغمازتان جارحتان،وطابع الحسن علي ذقنها، ونعومة جسدها،وصوقما.كانت أكثر من رائعة.وإلى الآن يضطرب قلبي بالعاطفة كلما ذكرتها.لذا عندما رأيت الرجل أحسست أعينيه جذبتا انتباهي تماما كما حدث معي في الصغر فكأنهما جذبتاني إلى هوة عميقة من الذكريات والأخيلة!

أخذت أتكلم معهما، وأشكو لهم الأوضاع السيئة. وجدقما يشاركونني الرأي، فالمهندس في نظرهما نصف رجل، والإدارة فاشلة، ولن تستمر طويلا!

اتضح لي من كلام إبراهيم أنه يريد أن يقوي صلته بالله بأي طريقة، قال لي: "والله لولا الأستاذ فخري لما جئت هنا، فأنا لا أتعامل مع طائفة المدرسين أبدا، وأعتقد أن أموالهم حرام، وأنا أريد أن أرضي الله في كل شئ" وبعد قليل أكمل:"لذا أنا غضبت من الدكتورة في المرة السابقة عندما اقمتني بسرقتها، فقلت لها نحن نتعامل مع الله فقالت أنا لا أعرف هذا الكلام،تخيل، معقول! إذا لم نكن نتعامل مع الله فمع من سنتعامل إذا؟!"

وسكت ثانية ثم قال:"والله هناك أعمال تعرض علينا مكسبها ألوف لكننا نرفض إحدي الراقصات طلبت منا بوسترات عليها صورها، وورق دعايا، وغير ذلك، فرفضنا، نحن نتعامل مع الله."وتابع عماد:"آه والله،" بالطبع لم ترضني كلمة مما قالا، لكن الموقف لم يحتمل الجدل فسكت.

فجأة انتبها لوجود كمال." من أين أنت؟" خاطبه عماد بلهجة فيها سخرية خفيفة ربما بسبب مظهره الذي لا يدل علي قاهريته،لاحظت أنهما سلطا الضوء عليه، فانسحبت أنا، ربما لم يكن انسحابي تأدبا بقدر ما هو تعجب من أن يلتفتوا إليه!

انطلق كمال في الكلام ذاكرا بلده، ومفاخرا بها على البلدان الأخري.كان يتكلم بحماسة كأنه يقول:"أنا مثلكم جميعا أنا لست كلبا حقيرا."وكما أذكر كان واقفا مادا قامته المتوسطة الطول المتماسكة،ذقنه مائلة على صدره،حاجباه مرفوعا لأعلى، وحدقتاه في سقف عينه، وعينه تكاد تضيء من حماسه.

كان مظهره لا كمن يتحدث،وإنما كانه يناطح، وظهر على وجهه اعتزازه بنفسه. في الأيام الأولي من العمل كان يحاول أن يثبت لي بكل الطرق أننا متكافئتان،وأنه لا يطمع في

بأي صورة من الصور. مثلا إذا طلبت منه أن يحضر لي طعاما امتنع بشدة عن قبول أي شيء أعطيه إياه، رغم أنني كنت أشعر بحاجته لما أعطيه،وبالطبع كنت أعلم ما يدور بذهنه، فقد قال في نفسه: "عندما أفعل معه ذلك سيعرف قيمتي، وأنني مستغنٍ عنه، وأنني يجب أن أُرمق بعين الاحترام، وألا يُظن أنني مجرد عامل في المركز لأن المسألة ليست بالمظاهر وإنما بالجواهر"!

وقد أرحته من هذا الصراع النفسي بأن استأثرت بكل ما أجلب لنفسي، وأرحت نفسي من هذه الملهاة المغثية!

كما قلت انفجر في الثرثرة، ودار الحديث بنا حتى حكى إبراهيم حكاية بشعة رآها بعينه في أحد الأحياء الشعبية حيث دخل أتوبيس علي محطة بها خلق واقفون فداسهم جميعا، ومنهم أطفال، وفي ثوان غطي المكان بأشلاء الموتى!

قال إبراهيم:"تخيل أنا لم أنم جيدا لعدة أسابيع،وكلما أغمضت عيني جاء المشهد أمامهما،وكنت أري كوابيس لا حصر لها،منها واحد أجد نفسي أهوي في هوة مظلمة سحيقة، وأستيقظ لحظة الارتطام. أتعرف؟ إلى الآن أنا لا أسير في هذا الشارع أبدا، هناك أناس يقولون إن أرواح الموتى تصرخ كل يوم قبل الفجر! أنا بصراحة أصدق."

وصَدَّق الجميع علي ما قال عدا أنا، بل وأضافوا حكايات من عندهم، توحي بأن عددا كبير من المصريين يعيشون في القرن الواحد والعشرين بأبدالهم لا بعقولهم فهم مغيبون حقيقيون!

قال كمال: "أنا سبب مجيئي إلى مصر- يقصد القاهرة - قبل أنا أعمل في المركز حادثتان رأيتهما بعيني،رجل أشعل النار في نفسه حتى احترق تماما."

وجمنا جميعا وسألناه عن السبب،فقال:"بسبب خلاف مع أبيه الذي أرد أن يزوجه من فتاة يبغضها.ولما أصر أبوه، أحرق نفسه حتى لا يتزوجها!"

وتفسير هذه الحادثة واضح كما ترون، فمرجعها إلى الصورة المقدسة المحفورة في قلب الابن.وإلا لما أحرق الرجل نفسه،ولأحرق أباه بدلا.لكنه لم يستطع أن يحسم الصراع ضد الصورة المقدسة.وأما من يحسمون الصراع لصاح أنفسهم فيقتلون آبائهم أو يرحلون !

والمعول النهائي على مزاج الشخص،ونشأته.ومدي سيطرة الأب عليه.

أما الحادثة الثانية التي ذكرها كمال فهي جريمة قتل وحشية قام بها عدة إخوة ضد ابن عمهم على بضع مئات من

الجنيهات،تجمعوا عليه وهو نائم أسفل شجرة،وضربوه بسكاكين،ثم أخرجوا أحشائه ومزقوها.ببساطة واختصار مثلوا به أبشع تمثيل!!!!!!!!!!

وأنا لا أشك في أنهم كانوا سعداء بما فعلوا بل في غاية السعادة واللذة،ولو كان الأمر مجرد انتقام لاكتفوا بالقتل مثلا،لكنهم قتلوا، وتمادوا، كأنهم أحسوا بلذة مشتركة تخللت أبدانهم بعدما قتلوه،لأنها لحظة كسروا فيها حواجز الممنوعات،وهل هناك ما هو أمنع من القتل.لقد حفظت البشرية نفسها بترسيخ هذا المبدأ "لا تقتل،" وقد أكدت لي هذه الحادثة ان الضمير الانساني ما هو الا الخوف من شيء. وأن الجرم في حد ذاته "غير معقول."فالضمير نشأ بسبب الخوف من شئ ما أيا كان هذا الشيء (الله القانون العقاب السلطة). لكنه لم ينشأ عن اقتناع بأن الجرم خطأ في ذاته أو أنه شئ قبيح أصلا، فنحن نمتنع لأجل شيء آخر،لا لقبح الشئ في نفسه، فالإنسان يشبه الآلة إلى حد كبير، بمعنى أنه يسير على ما بُرْمج عليه!

لذا أصحاب الضمير القوي عندهم قدر مساو في القوة من الخوف والجبن.ولو أخذنا مثال أصحاب الضمير الذي يرجع إلى الخوف من الله سنجد أن الأمهات يرثن العقائد الدينية،

ويورثنها لأبنائهن،فالطفل المسلم – مثلا – ينشأ على أن لله له عينان ينظران إليه في كل وقت، وأن هناك ملكين جالسين عن اليمين والشمال يحصون عليه حتى أنفاسه، وأنه لو أخطأ فإن الله سيغضب عليه،وسيدخله النار، التي تمتلئ بالعصاة.

وأن الله خلق الجنة للمؤدبين الذين يسمعون كلام ماما وبابا وخلق النار لمن يعصون أمهاتهم، إلى آخر هذا الكلام المعروف عند أهل الأديان؛فترسخ العقائد في نفسه،ويتكون لديه الضميرالأبوي الذي يستمد سلطته من الله الذي يحب الصالحين ويكره المذنبين.فيزيد الخوف،ويتحول إلى عذاب إذا أذنب الإنسان، وينقلب إلى سعادة إذا تجاوز الإنسان ذنبا ما.

أما معنى أن الجرم في حد ذاته غير معقول أي أن الإنسان لا يعقل القيود التي تحجزه عن فعل شئ ما، وإنما يمتنع عنها بسبب ظروف أقوى (الخوف مثلا)ولو أزيلت الحواجز لما امتنع الإنسان عن فعل ما يشاء (والإنسان–كما نعلم– كلب ضار يعقر ما لم يربط)،وهذا يظهر عند الأطفال بشدة، فهم لشدة مركزية ذواقمم لا يعقلون أن يكون هناك شئ ممنوع.الأصل عندهم أن ما يريدون يجب أن يتحقق.والتربية والتعمية (الكلمتان بمعنى) هي التي تكفكف من هذه المركزية، وتعلمهم أن للأفعال حدود يجب أن تقف عندها، صحيح أنهم

يتخلون عن هذه الذاتية المفرطة بالتدريج، ولكن تظل مشكلة مدفونة غير محلولة، ككثيرمن أفعالنا الغريبة التي تعود إلى مشاكل أجهض حلها في طفولتنا.

وربما كانت ثورتنا على المجرمين وكراهيتنا لهم لا تعود إلى أفعالهم بقدر ما تعود إلى حسدنا لهم، لأنهم جرؤا على ما لم نجرؤ عليه، لكن الحسد يخرج في صورة مقنعة على هيئة تقزز أو اشمئزاز، ونفور، ولأن هؤلاء المجرمين قد خرجوا عن الخط الذي أجبرنا أن نسير عليه، ونحن له كارهون!

لنرجع الآن إلى ليلة الحفل.لاحظت أن إبراهيم وعماد مرتبطان ببعضهما كالمهندس وأمه افهما يفهمان بعضهما بأدق الإشارات،ويتلكمان بألغاز لا يفهمها سواهما،كل ذلك يدور بلذة بينة، لذة من أمن صدر صديقه تماما.

وسر هذه اللذة في نظري يرجع إلى شئ هو أن الإنسان يحب أن يكون حرا في كل شيء، خاصة في كلامه الذي هو تعبير عن حاجاته الداخلية، والتي غالبا ما تكون مخالفة للواقع المحيط، وبما أن الاجتماع بالناس يتطلب مراعاتهم التي غالبا، أيضا، ما تكون ثقيلة علي الإنسان لأنها ضد رغباته شخصيا. إذا يحتاج الإنسان مخرج يدفن فيه هذا الكلام دون قلق.

وقد وجد هذا الصديقان هذا المخرج كل واحد في الآخر، ربما لأن هدفهما واحد، ونجاحهما مشترك فلا لزوم للخلاف من أي نوع لأن المصلحة بينهما أصبحت مادية ومعنوية.

وهذا الكلام يجرني للحديث عن شئ قريب، لماذا نشعر أحيانا بحب واحترام نحو أحد الأخاص؟ ولماذا العكس؟

لقد لاحظت أنني قد أحب بعض الأشخاص بلا أدنى سبب واضح، وقد يصل حبي إلى درجة التضحية بكل شيء من أجلهم، وأشخاص أخر أنفر منهم من مجرد النظر إليهم فيصير وجودهم ألما لي، وقربهم مني عذاب لا يطاق، عذاب حقيقي يصل إلى درجة الرد بالعداوة على أتفه الأشياء التي لا تستدعي مجرد الالتفات!

السبب في رأيي هو أنني عندما أحب شخصا، وأحترمه، فذلك إما لأن فيه صفة أعجبتني، وهي في نفس الوقت تنقصني، فإعجابي به محاولة لاكتساب هذه الخصلة، ولذا تجد نفسك عندما تعجب بشخص ما بشدة تفقد إعجابك بنفسك، وتبدأ في تقليده، ولبس جلده واعيا بهذا أو غير. فأنا مثلا رأيت مرة شابا ظريفا بحق يخطف إعجاب من حوله فاستثقلت دمه أولا ثم لم يمنعني حسدي له من الإعجاب

بسرعة بديهته حتى فقدت السيطرة على نفسي وبدأت أقلده!. وإما أن هذا الشخص الذي تحبه يذكرك بآخر كنت تحبه، وهذا النوع يمكن أن نسميه حبا تعويضيا كأنك تعوض في الجديد قديما فقدتَه، مثل أن تحب امرأة لأنها تذكرك بأخرى أحببتها من قبل، فمجرد التشابه الشكلي يوهمك أن الاثنتين متشابهتان.ونزوع قلبك لا يكون للجديدة بل للقديمة لكن عن طريق الجديدة.أي أن العملية تعويضية بحتة.فأنا الآن أحترم رئيسي في العمل،وأتقبل منه سخافته،وثقله،لأنه يذكرني بشخص كنت أحترمه وأنا صغير لكنه لم يكن ثقيلا كرئيسي، لذا أجدني أتغابى عن سخافات رئيسي كأنها غير موجودة،لأنني طابقت بينه وبين القديم في كل شئ فأنا أعامل الجديد كأنه القديم بالضبط، وعقلي لا يريد أن يقتنع – تبعا – بأن رئيسي سخيف!!

ومنذ أيام قال لي أحد من يعملون معي:"والله أنا أحب أن أراك كل يوم" فسألته عن السبب، وأنا أنتظر منه إطراء، لكنه قال:"لأنك تذكرني بواحد عزيز علي!"ولهذا السبب يحترمني بشدة وكأنه بهذا يحترم الواحد العزيز عليه.

ويمكنني أن أفسر بغضنا لأحد الأشخاص بأشياء، منها أن تكون فيه خصلة نكرهها كأن يكون ممن يحبون أن يصفعوا على أقفيتهم ويجدون في هذا لذة،فانت تكره هذا الخصلة

وتكرهه تبعا. ومنها أن يكون مصدر قلق لك.بمعنى أن تشعر أن وجوده يقلق وجودك أو يتعارض معه أو يشكل خطرا عليه.وأول رد فعل لك على هذا القلق هو البغض. ومحاولة التخلص منه، وإزاحته عن الطريق هو الشئ الثاني الذي تفكر فيه.وأذكر أنني كنت أكره شرطيا،لأنه كان يريني أنني موضع اضطهاده،وأنه يلاحظني، ويتربص بي،هذا الرجل سبب لي ألما وعذابا نفسيا مخيفا، لدرجة أنني كنت أتمنى أن يذوب أو يختفي أو يصعق حتى الاحتراق.كل هذا لأنه نجح في لعبته، نجح في إيقاظ رغبتي في الحياة إلى أبعد درجة!!!!

المهندس٢

هذا الفصل مكانه في آخر الكتاب لكنني وضعته هنا لأسباب لا أعلمها، ربما لأنه متعلق بتطورات حدثت للمهندس – علمتم جزءا منها – بعد أن تركنا المركز القديم، وانتقلنا إلى آخر.

الفصل متعلق بالمهندس الذي أعلمتكم قبل أنه شخص تعوزه الخبرة والاحتكاك بالناس،وأنا لا أدري هل قضى حياته في برج شامخ في السماء السابعة مع الملائكة الطيبين ثم سقط إلى الأرض لأنه نام في ليلة علي حافة البرج أم ماذا؟

كان يحاول أن يقنعني بكل الطرق أنه خبير بالناس وادعاؤه هذا خسره ٥٠ ألف جنيه في أقل من شهر؟ فقد خدعه مالك المركز الأصلي، والبواب، وشركة التكييفات، وشركة الموبيليا، وبعد هذا كله اكتشف في النهاية أن المركز قليل الهواء، وغير صالح لجلوس الطلبة!!!!!!

وصدمته، وخسارته البالغة، حولته بالتدريج إلى إنسان عدواني، يرى كل من حوله خونة، فصار كالقرش المطعون بين عينيه.وكنت أنا ممن بدأ المهندس يشك فيهم، بالطبع لم أفعل شيئا و لم يتهمني،لكن يكفي أن تشعر أن إنسانا يسحب

منك الثقة، وأنت أهل لها.أنا لم أعتبره أي شئ مذ جئت المركز فضلا عن التفكير في أذاه.إنه بالنسبة لي إنسان يستدر شفقتي، ورثائي، ويشعرني بقوتي، وسطوتي عليه، وكذا برغبة مسعورة في إحراجه، ومضايقته، بل والتسبب له في عقد نفسية. فأنا مثلا أعلم أنني أجعله يرتبك عندما أحدد النظر في عينيه أثناء الحديث معه، هو يدفعني إلى ذلك بسذاجته وغباؤه، وأنا أفعل ذلك تحدوني لذة مرضية ملحة لا أعلم سرها. وخطيئتي الأساسية أنني بشر!

لكن - كما ترون — الأذى النفسي الذي أفعله معه بريء من الإيذاء المادي، فأنا لم أستغله و لم أحتل عليه، و لم أسرقه رغم أن الأمر سهل، لا، لا، تعويضي عن هذا أن أتكلم معه، وعلى فمي ابتسامة ساخرة مستفزة محتقرة، كأنني أقول له: "يا مسكين!. "أنا لا أحتقره لكن أشفق عليه، وفي بعض الأحيان تتفجر في نفسي رغبات مجنونة في إيذائه نفسيا. وأجدني مدفوعا إلى هذا بغير إرادة مني ولو لم أفعل لمت كمدا!!!

والحقيقة أنني أشعر بلذة عظيمة وأنا أفعل هذا. وهذا ما جعلني اكتشف أن للإذلال لذة عظيمة، ما أجمل أن ترى الذل في عيني من لك قدرة، ما أجمل الشعور بأنينه وعجزه! وما ألذ أن تحصر إنسانا في مكان حقير وأن تنظر إليه وهو يرتجف من

الخوف،وينتظر حكمك فيه،كما يحدث في المعتقلات والسجون مثلا!

لذ إذا قلت لكم أنني كنت أعرف سيدة كانت تستعين على تمضية الوقت بتعذيب خادمتها، وإذلالها، فصدقوا وآمنوا. كذلك كانت تتسلى بتقطيع جسدها،وقطع عقل أصابعها كي تريحها من كثرة العقل التي لديها، وفي النهاية انتحرت الخادمة قفزا من الطابق السابع معصوبة العينين كي لا تري مصيرها!

ربما كنتم مندهشين مما أكتب،وربما اشمئز البعض، لكنكم تريدون المزيد من هذه التفاصيل البشع،أنتم مقتنعون أن ما كتبت بشع، وقبيح، لكن حرصكم علي سماع المزيد يقلقني منكم، ومن نفسي!!

وأنا لا أعلم سر محبتنا لسماع تفاصيل الحوادث البشعة، ولا أعلم سبب النجاح الدائم للجرائد التي تتخصص في الحوادث، والتي تحرص -بفن- على سرد التفاصيل البشعة في حوادث القتل والاغتصاب بطريقة تسمح للقارئ بتخيلها.

وعندما قال إنجلز:"إن البشر في مرحلة ما من حياهم،كانوا يأكلون بعضهم لنقص موارد الغذاء" لم أصدقه،؛لأن أكل البشر لبعضهم لن يحل مشكلة نقص الغذاء.وكم كان البشر ساعتها حتي يكونوا مصدرا للغذاء!

المسألة أعمق من هذا، خاصة إذا علمنا أن المأكولين يكونون دائما من أعداء الأكلة.وتفسير هذه الظاهرة يعود إلى أن الإنسان في فترة ما لم يعرف حدودا لحريته، خاصة حريته في الانتقام، بمعنى أنك الآن إذا قتلت رجلا لأنه ضايقك تُحاكم، أما قديما فتفريغ الحقد لم يعرف حدودا، ولهذا كان الإنسان قديما أصح من الإنسان الآن، لأنه لم يكبت في نفسه شيئا.وأنا لا أعتقد أن الإنسان تطور بشكل أو بآخر، فمازلنا كهؤلاء المتوحشين الذين ذكرهم هومير في إلياذته، صحيح أننا تفوقنا على كل الكائنات وبلغنا في سنين قلائل من التقدم ما عجزت عنه البشرية لملايين السنين لكن الجوهر واحد لم يتغير!

الإنسان لم يتطور مطلقا، يكفينا أن نقرأ تقريرا عن حرب من الحروب لنعلم ما يفعل الهازم بالمهزوم، في لحظة واحدة ننسى التحضر، والثقافة، ونحد أظفارنا، ونعد أجسادنا للعراك، في لحظة واحدة ينكشف زيف الحضارة والتقدم، ويستجيب الإنسان لنداءات نفسه المكبوتة!

عندما كنت صغيرا كانت تأتي علي بعض الأوقات أحب فيها ان أضرب أختي الصغيرة، مدفوعا برغبات ودوافع غريبة، كنت أضربها على وجهها بطريقة مهينة حتى تبكي بحرقة شاعرة بأنها أهينت، وأنها عاجزة عن الرد، فإذا بكيت، ورأيت الألم في عينيها، تفجرت بداخلي طاقات الندم، وبدأت أسعى

لمصالحتها بكل الطرق، وأثناء ذلك وبعده أتعذب بندم قاس. لكن أتعملون؟ إن هذا الندم كان يجلب على نفسي سعادة ولذة لا حدود لها، ويقوي في نفسي الأمل بأن أكون إنسانا جديدا.وبأنني هذه المرة لن أعود لما فعلت، وبعد النسيان تطاردني الرغبة مرة أخري فأفعلها وأندم وهكذا.......

- والآن تذكرت واحدا كان يتسلي بقتل القطط، يقف عليها بقدميه حتي يسمعها وهي تلفظ الأنفاس، ثم يقول لنا "ماتت لنقرأ الفاتحة،"وينفجر في ضحك هيستيري!!!!

- وآخر كان هوايته من بين جميع الهوايات هي قتل العصافير بعد نزع أقدامها، وسمل عيونها!

- لا عليكم مني ومن الوحشين الآخرين، في كتاب تاريخ إنجلترا لماكولاي قصة اللورد القاضي جيفريز، الذي عد من أقسي القضاة، وكانت متعته هي سماع أصوات المعذبين وهم يصرخون،قال ماكولي:"لقد أتيح له يوما أن يجلد مغامرة تعسة في مؤخرة عربة.فكان يصيح في الجلاد:"أيها الجلاد إنني أطلب إليك أن تولي هذه السيدة اهتماما خاصا، اجلدها بجد يارجل. اجلدها حتي تريق دمها.إننا في عيد الميلاد والجو بارد، وبخاصة بعد أن تخلع هذه السيدة ثوبها.فدفئ كتفيها قليلا"!!!!!

- وأنا واثق أن كل قارئ قادر علي إضافة عشرات الحكايات من ماضيه،آلاف الأشياء الدنيئة فعلناها خفية، وكلما تذكرنا شعرنا بلذة خبيثة،وسعادة قاتلة!!!!

أستاذ فخري

فخري مدرس علم نفس، واجتماع،وهو سبب تركي للمكان كما سنعلم، وقد خدعت فيه خدعة كبيرة.فهو مثال للإنسان البرجوازي،الأناني، الجشع،ومن خلال علاقتك تتأكد أنه ليس نظيفا علي الإطلاق،لا اليد،ولا الصدر،وهو علي استعداد لأن يضاحكك اليوم ويسحقك غدا!

لكن خدعتي فيه لا تمنع أنني أحببته وقدرته كأبي تماما!!!!لماذا؟

أولا هو لا يشبه أبي من قريب ولا بعيد في شكله. ففخري متوسط الطول والعرض، له كرش صغير مدور،رقبته غليظة محنية للأمام،وهو يحرص علي إحنائها، كأنه يدلل لك على أن الزمان هو الذي حناها وأثقلها بالخبرة والتجربة، ويستعيض عن إحناء رقبته ووجهه برفع عينيه لأعلي.عينان تقولان ما يريد وقتما يريد،عدا ذلك لا يفصحان عن أي شيء، لذا لا تعلم أبدا هل هو عدو أم صديق؟

وهو أصلع عدا جوانب رأسه التي لا تزال محتفظة بشعر أغبر خشن، كما أن هناك ندبة بارزة على خده الأيسر، وآثار حرق على أنفه، وشفتيه، وذقنه، حتي إن شفته العليا لا ملامح لها تقريبا!

- كل هذه القسائم والملامح لا تشبه أبي جملة ولا تفصيلا...لكنه يشبه أبي نفسيا من حيث الهدوء القاتل المقلق، وهدوءه راجع إلى تحكمه الشديد في أعصابه فأنت لا تستطيع استثارته بسهولة، أماهو فيستطيع، وإذا فعل نظر في الأرض متجاهلا إياك كأنك عدم.

سأصف لكم جلوسه،فهو يجلس مباعدا بين رجليه أو واضعا ساقا على ساق،يداه إما بجانبه أو خلف رقبته أو معقودتان على كرشه،كما أنه يكثر من مسح صلعته بين لحين الآخر، لماذا؟

لأنه يريد أن يوهمك دائما أنه رجل مهم كثرت مسئولياته، والحمل على كتفه ورأسه ثقيل، فهو يزيل همومه بهذه المسحة، بالضبط كما نفعل إذا وضعنا في موقف مع أشخاص أقل منا في الوضع الاجتماعي أو كنا نشعر بتفوق عليهم،وهم يشعرون بالدونية بالنسبة إلينا،وينظرون إلينا بإعجاب، نحاول أن نظهر الشرود، والتعب، والانشغال،وأننا في وضع صعب، ومهم، له صعوبات جمة، يتطلب الأكفاء، ونحن- للأسف - من الأكفاء، لكن ماذا نفعل؟ الحياة والمسئوليات!!

في مرة ذهبت للحلاق، فوجدته يحلق لرجل في الخمسين تقريبا، وفي نفس الوقت يكلمه في توصية لأحد أقاربه في

الجيش، إذا فهو ضابط بالجيش، وعندما فهمت ذلك من كلام الحلاق نظرت للرجل باهتمام ولاحظ هو ذلك، إضافة إلى أن الحلاق لا يخاطبه الا بألقاب السعادة والمعالى الفارغة،فجأة بدأ الرجل يتكلم مع الحلاق باقتضاب شديد، وظهرت علي وجهه علامات الترفع والخيلاء، وبدأ يمسح وجهه من الأعلى للأسفل كأنه يزيل الهموم التي تتناثر علي وجهه كل دقيقة، ووجهه ينطق بهذا الكلام:"أنا رجل مهم..ألا تعلمون قيمتي..ألا ترون التعب الذي تسببه لي أعباء الوظيفة!"

كذلك فخري فهو يعلم أن من حوله ينظرون إليه بإعجاب ورهبة،فهو يستزيد هذا الإعجاب بإظهاره التعب،كأن في حركته نوع من استدرار الشفقة، كأنه يقول:"نعم أنا مرهق متعب! اعطفوا علي!"،تماما كما كنا نفعل صغارا مع آبائنا، نوع من الرغبة في العود إلى الطفولة حيث كنا محاطين بالرعاية والاهتمام (ولبرنارد شو فقرة في كتاب له عن الاشتراكية يقول فيها إنه تأتي عليه أوقات يرغب أن يدلل ويلاعب وأن يسلك سلوكا مشابها للأطفال،وليحي حقي كلام مشابه) ضرب من الأنانية الطفلية في أن تجمع الناس حولك.وكل واحد منا يعتقد أن كل شئ خلق من أجله وحده وأنه أحق بكل ما في يدي غيره، وأن وجوده وحده فقط هو المهم بينما غيره لا حق لهم في الوجود وكلهم زائدون عن الحاجة!

وهناك حركة أخري يفعلها تعضد ما سبق من رغبته في إظهار الخطورة، والأهمية، وفي استدرار الشفقة،وهي أنه عندما يقرأ شيئا يبعده عن عينيه ضاما حاجبيه،رافعهما إلى أعلي، كأنه يركز تفكيره في شئ أو يظهر أن عينيه تعبتا من كثرة القراءة.وأنا اعلم أن عينيه سليمتان،وأن ما يفعل،إنما هو لتعزيز مكانته في أعين الناس،لكنه لا يعلم أن الحركة السابقة تجعل وجهه بشعا ومخيفا،ومثله لا يفزعه مثل هذا الكلام،سينظر إليك بلامبالاة ثم يحول رأسه عنك كأنك لم تقل شيئا!ذلك لأنه وصل إلى درجة عاية من رضائه عن نفسه، فهو لا يراها أبدا في صورة قبيحة من الداخل أو الخارج!

أنا متأكد من أنه ملم بحقيقة وجهه القبيح لكنه يعتاض بقوة شخصيته وأعصابه.

كما أن له عادة في الاستماع إلى الناس.فإذا كان في جمع من الناس، يتظاهر بالنوم – أي فخري – وفجأة يفتح عينيه ليقول شيئا ثم ينام دون مبالاة بأثر كلامه على الحاضرين!

وإذا تكلم فببطء شديد، دون تحويل عينيه عن المخَاطب. وهناك مسافات بين الكلام يحرص عليها.أي أنه لا يتكلم كلاما سريعا متصلا، بل يحرص على ثوان قليلة بين كل جملة، وفي تلك الثواني تقوم عيناه بالعمل، كأنه يجري عملية تنويم مغناطيسي للمستمع!

وفلسفة هذا الرجل أن الحياة غابة، وأن الناس أعداء، وكلنا في سباق محموم منذ الولادة إلى الموت،وأنك إن لم تبادر بالعداوة سيعتدي عليك،وإن لم تهزم تُهزم، لذا فهو سيء الظن بكل الناس، يتوقع الخيانة والغدر حتى من حذاءه!

كمال

أول من عرفتهم بالمركز.في اليوم الثاني من مجيئي وجدت الباب الحديد الخارجي مغلقا، فانتظرت قرابة الساعة،وفي هذه الأثناء جاءني البواب، بقامته الفارعة النحيفة، قائلا بعد السلام الزائف:"كمال سيكون معك،"وأشار إلى شخص مقرفص تحت شجرة ضخمة، تباهت قائلا:"في الريسبشن؟"فنفى الرجل بسرعة كأنه لا يريد لصاحبه مثل هذا الشرف،قال:"لا.. سيعمل في النظافة، عامل نظافة يعني"

"قريب لك؟"

"ابن عمي"

وهنا نظرت إلى كمال نظرة أخري لا تخلو من احتقار!

أثناء ثرثرتي مع البواب، فكرت هل من الواجب أن ألقي عليها السلام أم لا؟إن هيئته لم توح لي هل هو طيب أم خبيث؟هو نفسه لم يبادلني النظر إلا قليلا،وبدا ساكنا في مكانه كأنه هيجل يتأمل.وقد كان سكونه غريبا علي ساعتها، وبعدها تأكدت من أنه يشعر بضَعَةٍ لا حد لها، وأنه بسكونه يزوي أنظارنا عنه.

أنهى البواب ثرثرته وظل واقفا قليلا كأنه يبحث عن شيء يقوله، والحق أنني لم أرد أن أنزلق معه في أية حديث آخر حتى لا يذوب ما بيننا من فارق،فوقفت منتظرا أن ينسحب من جواري، وتمثلت في هذا الموقف أبي، حيث إنه لا يتكلم مع من لا يعرفهم، وإذا حاول متطفل أن يحادثه، وضع يديه خلف ظهره، ومط شفتيه للأمام،ورفع أنفه إلى أعلى،فيرغم المتحدث على السكوت.عندما تذكرت هذا الموقف أحسست أنني لا واعيا أتمثل أبي، وشعوري هذا جعلني في أمان كبير، كأن روح أبي معي، تماما كما كان يحدث وأنا صغير!

بعد لحظات انسحب البواب كأنه شعر بكبري عليه، تظاهرت بعدم الاهتمام،أخرجت من جيبي قطعة حلوى، وفكرت أن أبدأ بالتفضل على كمال،ذهبت إليه مادا يدي بقطعة، كنت سأقول "خذ" لكن قلت "تفضل،"

فقال:"لا شكرا كلها أنت. "الحق أنه صدمني بتلك الطريقة الأخوية التي تذيب الفوارق،كما أنه أفسد علي الدور الذي كنت أتلبس به،وما ضايقني أكثر أنه بعد أن أفسد علي خطتي مد يده وأكل ما قدمته، نظرت له قليلا ثم انسحبت.

رغم أن ما أقول دنيء لكنها الحقيقة، أحببت أن أثبت له أنني كريم أو سيد كريم، لكنه أفسد علي الموقف،وهكذا تعكر الماء من اليوم الأول!

كمال٢

هو متوسط الطول، نحيف،أسمر، صلب العود، لا يلبس الا بنطلونا أسود ذهب سواده،وقميصا أسود به ورود صغيرة....يداه خاليتان من الشعر،ذقنه كذلك،سوى شعيرات قليلة متفرقة، وجهه مثلث معروق عند الخدين كأن فيهما أخدودين.

لازلت أذكر أول كلمة قالها لي بعد أن استوثقت صلتنا قليلا، قال:"يا أستاذ أحمد، أنا عندما أرجع إلى بلدي وأتذكر حياتي، أحتقر نفسي بشدة."

"لماذا؟."

"لأنني وصلت إلى هذه السن، أربعون عاما، وإلى الآن لم أفعل شيئا في حياتي،ولم أترك شيئا لأولادي،أنا لدي ولد وبنت، اقتربت من الأربعين،وإلى الآن ليست لي وظيفة، ولا دخل ثابت، ولا معاش، ولا تأمين، بعد خمسة وعشرين عاما من الغربة، والشقاء، وتركي أولادي بعيدا عني."

أظهرت إشفاقا على ما يقول لكنني لم أحس بأدنى قدر من الشفقة عليه، بل شعرت برغبة في الضغط عليه بقسوة حتى ينفجر..!

- سألته عن أولاده، أعمارهم، شعوره نحوهم، وجدت الأسى يظهر في عينيه تدريجيا.كان يظن أنني أريد التخفيف عنه. قلت فجأة:"لا..لا، كل ما قلت لا يبرر ولا يسوغ لك أن تتركهم بلا غاية ولا هدف، كالأيتام،وغدا سينسونك. سينسون وجهك.سينسون هذا الذي يشقى من أجلهم، كل هذا لن يهمهم فيما بعد، سيفكرون في أنك الرجل الذي تركهم وهم في أمس الحاجة إليك، لا شيء سيملأ هذا الفراغ الذي أحدثته في نفوسهم، قل لي ماذا تعرف عنهم؟ لعلك نسيتهم، وتخيل الآن لو حدث لهم مكروه وأنت بعيد عنهم، ماذا؟" لاحظت أن كلامي هزه بعنف، ازرق وجهه، واضطرب، كأني كلامي عرى ما يحاول أن يخفيه عن نفسه، فجأة قطع كلامي صارخا:"وأنا ماذا أفعل؟ لقد فعلت كل شيء من أجلهم، تغربت، بت بلا طعام، نمت في الشوارع والحدائق، كل هذا من أجلهم، لكنني عاجز للأسف، قل لي ماذا أفعل؟"

"أنا لا أكذبك،لكن أين نصيبهم منك؟ ألم تفكر في هذا؟ متى سيعلمون أن لهم أبا يشعر بهم، كان الأفضل ألا تنجبهم حتى لا تعذبهم! "جدته ينظر لي بكراهية،وقف فجأة وخرج، بالطبع فاجئني بما فعل، لكنه بعد أن سمح لي بأن ألعب به أفضل لعب!

أنا فاهم كل شئ

كمال ذكي جدا،رغم أنه لم يتلق تعليما من أية نوع، وكونه أميا يسبب له مشاكل نفسية،كالشعور بالنقص،ومن يشعر بالنقص يحس أن من حوله يبصرون عيوبه، وأنهم بينهم عار من الثياب ينظرون إليه وهو غير قادر على ستر جسده، لذا فهو يستخدم – كمال – حيلة نفسية دفاعية،هي جملة: "أنا فاهم كل شئ،" التي يكررها دائما بمناسبة وغير مناسبة، لأنه يظن أن الناس تحتقره لأميته،وهو يدفع احتقار الناس المُتوهم بهذه الجملة المملة!

ومن كلام أي شخص تستطيع أن تتصيد له لوازم معينة، عادة ما تكون مفتاحا لنقاط مهمة في شخصيته. مثل كلمة "فاهم؟" التي يكررها الكثيرون في كلامهم تدل علي أن هذا الشخص غير واثق دائما من فهم المخَاطب له،وكاللازمة التي ذكرها كامو في "الغريب" عن "ماسو" الذي كان يقول دائما "وأريد أن أضيف إلى ذلك"رغم أنه لا يضيف شيئا.وفي مرة ذهبت لزيارة أحد الصحفيين الكبار،لم تستغرق الزيارة عشر دقائق، فكان يكرر جملة "أنا عاوز اشتغل" بطريقة لافتة للنظر،

مثلا ينادي الفراش:"هات لي القهون عشان عاوز اشتغل،" أو أقول له :"أنا معطلك،" فيرد:"أبدا بس أنا عاوز اشتغل."وقد عكست هذه الجملة في نفسي، مع تعابير وجهه، في نفسي تفسيرا ما، وهو أنه يشعر أنه أقل من المكان الذي يجلس فيه، فهو يريد أن يذكر نفسه كل دقيقة بأنه في مكان مهم،وأن عليه العمل بجد.وهذا التفسير واضح من الجملة التي تشعر أنها مبطنة بالخوف،والقلق، إضافة إلى تعابير وجهه التي كانت محملة بقلق واضح.

لنرجع الآن إلى كمال الذي يكرر هذ اللازمة كأنه لا يحفظ من الكلام غيرها.عاتبه المهندس مرة على تكاسله، فانفجر غاضبا بعدما انصرف المهندس،قال لي:"هل يظنون أنني لا أفهم، أنا فاهم كل شئ، هل يظن أنني لا أفهم لمجرد أنني جاهل وهو مهندس،"ولا أخفي أنني كنت أشعر بكم هائل من السعادة والنشوة،عندما أسمعه يتكلم بهذه الطريقة،لأنه يتحرر في كلامه من سلطة وعيه الذي ينتخب من الكلام، والحركات،ما يناسب الظرف، والمقام،ويعطي الفرصة لأفكاره الحقيقية بأن تنفجر وتصخب بعنف....كم كان ذلك ممتعا!

حيوان حاقد ملحد

ثلاثة أوصاف تنطبق على كمال تماما، فهو حيوان لأنه لا يفكر في شيء سوي الطعام والشراب،أكلت في هذا المكان، وكان أكلهم كذا، وشربهم كذا.أول يومين نتحدث فيهما مع بعض، لم يتكلم عن شيء سوى الطعام حتى أغثاني، لأنني اعتدت الصبر عن الطعام كفقراء الهنود، ولم أعتد أن أفكر فيه بهذه الصورة البشعة، فاستحق وصف الحيوان!

كمال، أيضا، إنسان حاقد يحقد على كل أصحاب المال، فهم في نظره لصوص حقيقيون.وسمة الحقد تسيطر على تلك الطبقة كلها، شعورهم بالحرمان، وبوطئة الحياة؛ يربي الحقد في نفوسهم. بواب العمارة في مرة قال بمرارة: "حياتهم كلها حفلات، وعزومات،وفسح، ينامون صباحا، ويسهرون ليلا، ويهلكون المال في أتفه الأشياء، ونحن نشقي ليلا ونهارا، نضيع أعمارنا دون أن نفعل أي شيء،" مع العلم بأن هذا البواب يحصل دخلا يزيد على أربعة آلاف جنيه شهريا، مع هذا فهو غير قانع!

وكم مرة رأيت وجه كمال،مليئا بتعابير الغل والحقد حينما رأي المهندس يخرج من جيبه مبلغا ضخما، ينظر في الأرض تلقائيا ويضغط على فمه حتى يبرز جانبي فكه من الخدين،بالطبع هو يواري بنظرته إلى الأرض التعبير الذي يظهر علي وجهه!

والحقد في رأيي ينشأ متفرعا عن حبنا الطاغي لذواتنا، فإذا مس شيء خارجي هذ الهالة المقدسة التي نحيط بها أنفسنا تكون الحقد في نفوسنا،أي أنه يتكون عند الإهانة بأي صورة من صورها، والإهانة لا تختص بأن يسبك أحد أو يضربك،بل مجرد رؤيتك لمن هو أفضل منك بمقاييس التفضيل التي تراها، لأنك لا تري لأحد أن يكون أفضل منك، وبالطبع لابد للإهانة من متنفس؛ إما بطريق إيجابي عن الطريق السعي ضد من تحقد عليه،فإن لم تتمكن كحال الطبقات الدنيا مع العليا، يظل الحقد في صدرك، حتى تتمكن من إخراجه بأي صورة، لهذا كثير من الأثرياء يشكون من أن من يعملون عندهم يقابلون المعروف بالإساءة،وهذا راجع إلى غباء أولئك الأثرياء، وإلى الحقد المتكون في نفوس تلك الطبقة ضد من يعملون عندهم!

وبهذا أقول إن الحقد من محركات النفس البشرية، وأنه يدفعنا إلى كثير من الأفعال التي نفعلها يوميا. وإذا أردت أن ترى الحقد في أنقى صوره فشاهده عند الأطفال، فهم مرتع خصب لكل هذه المشاعر.

عندما كنت صغيرا تمنيت ان أشتري كرة، فكانت أمي ترفض حتى لا أحطم الأثاث والتحف، وكلما شاهدت أطفالا يلعبون أو يقول هذا إن عنده كرة أو عشرة، فتفاقم الحقد في قلبي، حتى إنني في مرة ظللت أبكي إلى أن نمت، ولم يحركني إلى كل هذا سوي مشاعر الحقد التي لم أكن أعقلها بعدا!!!

أما عن كونه ملحدا فلا أقصد إنه كسارتر،وفرويد، وماركس،بمعنى إلحاد مفلسف،ومبرر،يقوم على أسس عقلية، لا بل إحساس هذه الطبقة بأن الكون لا يقوم على العدل، وأن القدر ظلمهم - والقدر بالطبع صورة من الصور التي يختبئ الله وراءها - وأن النعمة مع من لا يستحق،وأن ما يحدث ظلم.وهل هناك إلحاد أكثر من أن تظن الظلم بمن تعبد، ولذا فإيمان هذه الطبقة،غير المثقفة، بالله هو إيمان نفعي بحت،قالوا لواحد:"لم لا تصلي؟"،فقال:"ولم أصلي،ابني مريض، والفقر قريني، وصاحبكم هذا- أي الله- لا يفعل من

أجلي شيء،" وقد وجدت من السهل جدا أن أبلغ بكمال هذه المرحلة من الإلحاد، وأن أتحقق من أن الإيمان الظاهري الذي يتسلح به ليس سوى مظهر زائف، يخفي تحته مرارة الإلحاد وكآبة الاعتراض.صحيح أنه لا يعلم أن ما يقول، وما يعترض عليه ضرب من الإلحاد لكن يكفيني أنني علمت ذلك، وأنني استطعت عن طريق فتح مجال الكلام له أن أصل إلى جوهره الطفلي الحقيقي المختبئ وراء النفاق الاجتماعي أو وراء الأفكار التي نقنع أنفسنا بأننا مقتنعون بها،رغم أننا ما بداخلنا ينافيها بشدة!!!!!

علاقتي به

لاحظت أنه كان يلقبني أول معرفتي به بالأستاذ، شيئا فشيئا تنازل عن هذا اللقب،وصار يكنيني أو ينادي علي باسمي، مما أزعجني بشدة لأنني لا أحب أن يعتاد علي مثله، فضلا عن أنني وجدت أن المبادئ التي أومن بها من التساوي بين بني آدم ومبادئ الثورة الفرنسية، وحقوق الإنسان كلها أضاليل خادعة، ومبادئ زائفة لا تثبت أمام الاختبار العملي. واكتشفت أن الطبقية تجري في عروقي،وفي عروق كل الحقوقين.لذا لم أستطع أن أجبر نفسي على التسامح بل كنت أضطرب بالكره والغضب كلما نادني باسمي.

أخذت أولا أعاتب نفسي لأنني تباسطت معه، كنت أظن أنه سيأخذ هذا علي انه إحسان وفضل-ونفوسنا ليست بأنظف من هذا والله شاهد - لكنه أخذ تقربي على أنه حق له،رغم أن صاحب المركز ينادني باسمي، والمدرسين، لكنني لم أقبل منه هو بالذات هذا!.وتكراره لهذا جعلني في حالة سيئة، وتفكير متواصل في ما يجد ربي عمله؛ لذا عزمت علي إعطاءه درسا.وجدته مرة يقول لي:"من أين جئت بهذه البدلة يا أبو حميد؟،"والحق أن الكلمة فعلت في فعلها، وبرق في ذهني أنه لا

يحترمني أو يستخف بي، استجمعت شجاعتي، ودون تفكير قلت:" لم تكنيني؟هل نحن أصحاب؟ أنا لا أحب من يعتاد علي بسرعة؟هناك حواجز لا تتعداها. افهم هذا جيدا.ثم إننا لم نمكث مع بعضنا سنينا حتى أسمح لك بذلك،" كنت أتكلم بطريقة أب صارم ينذر ابنه، هي طريقة أبي في الإنذار، ولأنها تخيفني فقد درجت على أن اعتبرها مخيفة لأي واحد أنذره!

استمع لي بشيء من الضيق، والقلق، والذهول.زوى فمه ناحية اليسار، وحك ذقنه بكفه، قال:" لم أفهم،"فأعدت عليه كارها، لم أستطع النظر في عينيه، أحسست أن القلق يغلف كلامي أنا الآخر، ربما القلق من المواجهة، من رد فعله، من العراك............

بعدما أنهيت كلامي ابتسم بسخرية، ثم هز رأسه كأنه يقول لنفسه:"توقعت هذا!."خرج من المركز وعدت أقرأ الجريدة، فلم أفهم حرفا واحدا، هل أخطأت فيما فعلت، لم أهتد لشيء، أكثر ما يقلقني أن يضمر لي شرا في صدره، ما المانع من ان يقتلني؟! أنا لا أبالغ، إنه يشعر أنه ذليل محتقر بين الناس ولربما تجمعت الأفكار السوداء في رأسه دفعة واحدة، كل من أهانوه وذلوه وعاملوه علي أنه كلب محتقر - كما كان يقول لي دائما - يمثلهم في شخصي، وينتقم لنفسه من هؤلاء في!

ثم إنني لا أحتمل هاجس الموت بطريقة بشعة على يد مثله، صحيح أنني أريد أن أموت بكل قوة،لكن ميتة أرستقراطية هادئة، على الفراش،دون ألم، أريد أن أسلم روحي— إن كانت موجودة - بهدوء كما دخلت جسدي بنفس الهدوء.

لقد عشت طول عمري منبوذا لا أحرص على أحد، لكنني أحرص كل الحرص على ألا يعاديني أحد.إننا جميعا مطبوعون علي العداوة والضغينة، أقسم لكم أن كل من تثقون بكم، وكل محبيكم، وأقرب الناس لكم، ما هم إلا أعداء حقيقيون، ولن أورد مثالا انظر في نفسك قيلا.

لذا لم أحتمل أن يعاديني كمال، ونويت أن أتخذ معه أسلوبا دنيئا - ولا عزاء للمثاليين — انتظرته حتى دخل ثانية، طرق الباب بيده عندما دخل كأنه يعلن العداوة، قلت له: "يبدو أنك غضبان."

"لا لا لا أبدا."

"اجلس."

"لا أنا خارج، لم يحدث شئ."

"اسمع بس الكلام" نظرت في عينيه محاولا التأثير عليه، "اجلس" فجلس.

طأنا لا أريدك أن تغضب، من فضلك اسمع ولا تقاطع...أنا لم أقصد مطلقا إهانتك، أنا من أول يوم جئت فيه وأنا أحترمك، هل رأيت غير ذلك؟ عظيم أن تشهد على معاملتي لك.بالعكس أنت إنسان مهذب وأمين لذا أنا أحترمك،ألم أتوسط لك عند المهندس بأن تنام في المكان بدلا من السكن في مكان بعيد، وتجرعك لمشوار بعيد كل يوم...حصل هذا مني؟ لو كنت أشك فيك للحظة لما توسطت في شئ كهذا، أليس كذلك؟ لأن أي شئ سيحدث سأكون أنا أول من يتهم فيه." بدأت أتكلم بحرارة كالخطباء،محاولا السيطرة عليه بحركات جسدي.

تابعت:"لكنني فعلت ما فعلت وقلبي مطمئن أنك لست بلص، إذا أنا أحترمك.وأنت تعلم هذا. من أول يوم ناديتك بعم كمال،وقصدت أن أسمعك، لأنك أكبر مني سنا،فهل أخطأت؟ "لاحظت أن كلماتي امتصت غضبه،وهو الآن ساكن مخدر، والهجوم عليه سيكون ممتعا!

أكملت كلامي:"أظن أنك الآن تتسائل و لم طلبت منك ألا تناديني باسمي.وأنا اقول لك إن الاحترام المتبادل يُبقي المودة، لكن المزاح بالتدريج يذهب بها، أما رأيت بعينك أصدقاء أعزاء تقاتلوا بسبب المزاح، أنا أعرف أخوين تمازحا أمام جمع

من الناس فصرع أحدهما الآخر فلم يرض المصروع بالهزيمة، أتعرف ما فعل؟ طعن أخاه في عينه!! لذا أنا أكره التعود الذي يذهب الود. "أحسست أن كلامي تخلله إلى أقصى درجة، فبدأ يهز رأسه مصدقا.وأقسم لي، أنه فهم مقصدي، وأنني محق فيما أقول، وأخذ يسرد لي قصصا عن أصدقاء تقاتلوا بسبب الاعتياد الزائد عن الحد، و......

وانطلت عليه.

طموحه

يعتقد كمال أنه لو كان ذا مال، فقد ملك كل شيء. ففي يوم أثناء حديثه عن المال ذكر أنه يرغب في أن يكون له مليون جنيه،وعندما سألته عما سيفعل بها، قال كلاما دل على أنه لم يفكر في هذه المسألة،وذكرني هذا بالكونت "شابيلسكي" في مسرحية إيفانوف لتشيخوف، تمنى مبلغا مماثلا، وعندما سألته "آنا" عما سيفعل بها، فكر دقيقة ثم قال: "سأذهب إلى موسكو حيث أري رقصات للغجر،ثم أسافر إلى باريس وأستأجر شقة،وأقضي بقية عمري بجوار قبر زوجتي!"

لذا قلت نازيا عليه: "الأغنياء ليسوا في راحة كما تظن، الناس كلهم في شقاء حقيقي.سأثبت لك شيئا، أنت الآن تنام على البلاط، ولا تتأثر، وتستحم بماء بارد في الشتاء، فأنت ذو صحة قوية. هم لو كانوا مكانك لما تحملوا، اسمع ايضا ما هي أكثر أكثر أكلة تحبها؟)

"اللحم" أجاب دون تفكير.

"لو أكلت لحما كل يوم ألن تمل؟"

هز رأسه بالايجاب.

"عظيم، فلو كان الغني في نظرك ممثل في أن تاكل كل أصناف اللحوم؛فأنا أقول لك-كما قلت الآن-ستسأم بسرعة، لأنها صارت في يدك..تظل الحياة حلوة مادمت في شقاء، ما دمت تسعى وتحصل بعد جهد، الرخاء التام يعني الموت."

لكن هل أنا مقتنع بهذا الكلام الآن؟ من الناحية النظرية فقط، لكنها فلسفة تشبه المخدر، مثل رجل غير راض بحياته تماما لكن لأنه مؤمن وهو خائف من أن يظن به الله أنه-أي المؤمن- غير راض عن أفعاله -أي أفعال الاله - فهو يقنع نفسه كل وقت بهذه الجملة "أنا راض،أنا راض" لكنه متأكد أنه يكاد يطفح بالغضب،ربما كنت أريد بهذا الكلام أن أخفف عنه أو أتسلى باللعب في رأسه، لكنه كغيره من الكلام علل نتعلل بها، والحقيقة الوحيدة هي ما نحسه.

قصص

الأعزب

في هذا الفصل وما يليه كتبت قصتين رواهما كمال رأيت أهما يستحقان الكتابة أولها قصة صديق لكمال، في الخامسة والأربعين، معذب بالرغبة الجنسية،لم يستطع الزواج طوال عمره، فصار يلهج وراء أي امرأة تصادفه. هو مدرس، لا أعلم في أية مادة، وحسب وصف كمال هو "طويل عريض فحل بمعني الكلمة، "لكنه لك يتزوج بسبب فقره الشديد،فهو لايعمل عملا ثابتا، لكنْ يعطي دروسا ويعتاش منها.بالطبع رجل كهذا، معذب بالشهوة، لا يمكن أن تكون سمعته طيبة، لأنه ما إن يحل مكانا حتي يبحث عن صيد،وهذا يجعله مفهوما مكشوفا،كما يجعله مصدر قلق لغيره من الذكور،الذين يفهمون بعضهم؛ فكل من له أم أو أخت أو قريبة سيعتبر مثل هذا الرجل عدوا له.وبسبب شهوته المتقدة تعرض للطرد من عدة أحياء بل وللضرب أيضا!

في مرة سكن حيا شعبيا.العمارة أربعة طوابق،كل طابق شقتان.كل شقة مغلقة على أسرار وكوامن،روايتها تحتاج لملايين المجلدات،وملايين الكتاب البعيدين عن الجنون.المهم

استقر به المقام فوق سطح العمارة،ولم يظهر عليه ما يخيف، بمعنى أنه كبت نفسه وظهر بمظهر رجل عفيف.

في الطابق الأول رجل قهوجي وزوجته.يخرج في التاسعة صباحا ولا يرجع إلا في الثانية عشرة مساء. وزوجته شابة سمراء جميلة، ولا علاقة لها بأحد.حياتهما عذاب لا يطاق، فالزوج متوحش يتفنن في تعذيبها..لأي سبب كان..ولايضربها إلا بجنزير حديدي- حقيقة علمية!-وربما كواها بالنار أو حلق لها شعرها.وصراخهم يصل أحيانًا إلى أن يكسر الناس عليهم الشقة ليفصلوا بينهما.وفي مرة كان الأعزب هو بطل هذا الموضوع، أهدا الزوج، وصالح بينهما، وكان بعد ذلك إذا سمع شجارا نزل بسرعة ليفصل بين الزوجين. فصار- بتعبير دستوفسكي- صديق العائلة.

هذه هي البداية،في الظاهر هو يصلح بين الزوجين،وفي الباطن يضمر شيئاً آخر.فزوجة الرجل جميلة،مسكينة. مستضعفة،ووضعها يسمح له باللعب،والموقف هذه المرة مأمون.فمن سيشك في الرجل الطيب الذي يصلح بين الزوجين التعيسين؟!

المسألة كلها تحتاج إلى صبر،وحسن تقدير،متى تنقض، ومتى تتقهقر.وبالطبع هو خبير بهذه المسائل.فكان في صعوده، وهبوطه، يطرق باب الزوجة ليسألها عن حال زوجها، وعن

حالها هي، هل تحتاج شيئا.بالتدريج بدأت تحكي له شقاءها، وهمومها، مدفوعة برغبات لا أظن أنها بريئة.فلا شك من أنها فهمته، وأنها أعطته الفرصة.وفي هذه الحالات تفتتن المرأة بالرجل ذي القلب الكبير الذي يسمع شكواها،وتبدأ في الاتجاه بعواطفه نحوه.

ولا شك عندي في أنها كانت تعلم ما يريده منها وهو يعلم ذلك.وأنا إن تخيلت شكل الحوار بينهما،فسأتخيله مستمعا بنصف عقله،وبالنصف الآخر يفكر في مدخل يدخل منه، بعده تذهب هي وزوجها إلى الجحيم.

وفي مرة كانت تتكلم معه فنظر إلى أعلى السلم وأسفله ليطمئن إلى هدوءالمكان.فجأة أمسك يدها:"زوجك هذا لا يستحقك، أنت جوهرة غالية. أنت لا تقدرين قيمة نفسك" ثم قبلها خطفا.

استوقفت كمالا وأنا في قمة الإثارة:"طبعا حدثت علاقة؟"

"طبعا."

أخذت أتخيل هذا الوقف الرائع، فالدنيا كلها لا تساوي موقفا كهذا،اثنان هما رغبة متأججة يجتمعان،وتحت ضغط الخوف،والقلق من الفضيحة،تجمح به نفسه فلا يتردد.

موقف كهذا جدير بأن يخلق في الإنسان طاقة عالية قد تدفعه إلى الانتحار.

هناك بعض الناس تدفعهم الرغبة في إثبات حبهم إلى المهالك، ومنذ فترة سمعت عن شاب قال لفتاته إنه يحبها أكثر من نفسه، لم تصدقه، قال إنه مستعد لأن يلقي نفسه في النيل الآن، لم تصدق،فألقي نفسه، ومات غريقا!

بالطبع في التحقيقات أكدت الفتاة أن الأمر لم يتعد المزاح وأها لم تتصور أبدا أن يفعل ذلك، وأنا أقسم لكم أها كانت تدفعه بطريقة خفية إلى ما فعل، وأها أرادت أن لها قوله بأبشع صورة .ضرب من الأنانية العنيفة، والرغبة في إرضاء غرورها.ربما حزنت عليه، لكنه صار مصدر فخر لها، فهي فتاة يلقى الرجال حتوفهم رغبة فيها!!

لهذا الموقف الذي سطره دستوفسكي في المقامر، عندما قال البطل لحبيبته إن على استعداد لأن يلقي نفسه من رأس هذا الجبل نكسا رأسه لأسفل إن هي طلبت ذلك... وسيفعل ذلك بسرور كبير.... هذا الموقف في رأيي حقيقي لا محالة...فهذا المقامر كان حريصا علي إثبات حبه العنيف لتلك الفتاة، حبه الذي دفعه، لأن يقول:"إنني لو غرزت خنجرا في قلبها لفعلت هذا هذا متلذذا،"والموقفان مناسبان لطبيعة دستوفسكي

العاطفية الانفعالية المندفعة...ولا أقول المجنون فهو لم يكن مجنونا أبدا، و لم يقترب من المجنون أبدا بل انفعاله في رأيي علي الورق فقط.

وربما أثارت العبارة السابقة لديكم إحساسا بالتناقض فكيف يحب بطل الرواية بجنون ،وفي نفس الوقت يتمني لو غرز في قلبها سكينا..المسألة بسيطة فن المعروف أن الحب ضعف..فكلما أحببنا شخصا شعرنا بضعف نحوه، وصارت له سلطة علينا...في بعض الأحيان نشعر بوطأتها ونتعذب بها...والشعور بالضعف مرفوض تماما، تأباه ذاتيتنا، وأنانيتنا. ومن هنا ينشأ في النفس اتجاها مقاوما لعاطفة الحب التي تسبب الضعف، هذه المقاومة هي الشعور بالكره، فأنا أكره محبوبي لأنه جعلني ضعيفا أمامه..لأنه أهان ذاتي....لذا طبيعي أن نشعر برغبة في قتل والدّيْنا، وهو إحساس لازمني كثيرا لشدة حبي لهم وغضبي الداخلي من تحكمهم في، ورغبتي في قتلهم يدل على أن شعوري بالغضب، والمرارة، يساوي شعوري بالحب.

أرجع إلى صديق كمال الذي صار زوجا ثانيا للمرأة، لعدة أشهر يدخل منزلها ويخرج منه سرا، وفي ليلة أتى الزوج قبل ميعاده بساعة..فوجد باب العمارة مغلقا...والباب كله مصفح، لكن هناك ثقب كبير في الباب يكشف ما

بالداخل...طرق الرجل نافذة بيته آمرا امرأته أن تأتيه بالمفتاح،ب الطبع لم يتوقع العاشقان هذه الزيارة المفاجئة. بالصدفة ذهب الزوج ونظر من الثقب ففوجئ بالعشيق يخرج من بيته جريا لأعلي...جن جنون الزوج، والباقي معلوم.

سألت كمالا: "هل طلقها؟"

"نعم وباع الشقة."

"وصديقك؟"

"ترك الغرفة وذهب لمكان آخر"

"وصيد آخر"

" ما سمعت هو أنه تزوج من امرأة أكبر منه بخمس سنين"

"وهل ترك ما يفعل؟"

"لا هذا داء،" قال هذا ضاحكا فضحكت أنا الآخر، وشردت عنه.

يوم في السجن

يوم من أسود الأيام التي مرت على كمال. كان ساعتها يعمل على عربة فول، فجاءت حملة جمعت البائعين دون تهمة واضحة، وذهبت بهم جميعا إلى الحجز!

وجد نفسه أمام ضابط، ملامحه غير مريحة،سأله الضابط عن اسمه، فرد كمال:"مكتوب في البطاقة،" دون تفكير من الضابط مزق البطاقة...ثم جروه مع زملائه على سجن ل ايسع عشرة أشخاص، فيه ضعف العدد السابق من المجرمين، بطون ممزقة، ووجوه شائهة، وكل ما لا تشتهيه الأنفس، ولا تلذه الأعين.

- قال كمال:"حمدت الله أنني وضعت ما معي من المال في الأمانات، وأبقيت معي ١٥ جنيها للحاجة،" في البداية حاول السجناء إيذاءه، فصدهم قائلا إنه صديق لفلان، وهو واحد من ذوي السلطان علي السجناء، وبالفعل تحول موقفهم كلية، وأعلنوا أنه معهم.قال كمال:"واحد منهم قال: ده معانا.ولا أخفي عليك أن قلبي كان في قدمي، والحمد لله أنني تذكرت فلانا هذا، ولولاه لما خرجت سليما."

أحسست أنه بدأ ينقبض،كأن الذكري عادت له بكل مشاعرها المؤلمة.

- قال:"بعد ست ساعات،عرضونا على النيابة،وكيل النيابة سألني عن تهمتي، أخبرته أنني لا أعلم، فأخلى سبيلي، على الباب كانت هناك امرأة جالسة في يدها سيجارة تدخنها بهدوء،والضباط يسألونها أسئلة من نوعية:"كيف حالك؟متى جئت؟ "عرفت من عسكري أنها مومس.يقبضون عليها كل فترة.والمكان بالنسبة لها فندق.وطبعا لا أحد يؤذيها بسبب المصالح بينها وبين الضباط وغيرهم."

"هناك شئ آخر. قبل ما أدخل لوكيل النيابة، كانت معنا فتاة مسكينة، جاءت معنا وحجزت مع النساء، أمين شرطة في القسم حاول أن يعتدي عليها، رفضت المسكينة؛فسبها وضربها ثم أمرها أن تمسح العنبر كله.قلنا لها:"لَمَ لم تخبرينا؟!،" قالت:"أنا امرأة مسكينة، لو قلت شيئا كهذا، لن أنتهي من التحقيقات.وربما لفقوا لي قضية."

أحسست أن الكلام أصبح أكثر مما يحتمل،فأوقفته وخرجت أدخن سيجارة بهدوء....

ذكريات أيام سوداء

نحن الآن بعد شهر ونصف من عملي كريسبشنست، إلى الآن لم يأت طالب، ولم أقم بأي عمل يذكر، بعض الجرائد المغمورة رأوا الإعلان الذي طبعناه، فأرادت أن تطبع لنا نفس الإعلان مقابل سبعين نسخة نشتريها، وبعضهم يطبعون المرة الأولي مجانا، وبعد ذلك نعلن عندهم بأسعار منخفضة.

في هذه المدة تعرفت على بواب العمارة أكثر، عرفت أنه يسرح أبناءه الصغار يوميا ليأتي كل منهم برزقه، أحدهم في السابعة تقريبا كل يوم يذهب إلى السوق فإذا وجد أناسا تنوء أيديهم بالأحمال حمل لهم مقابل أجر.وإن لم يجد ابتاع بضاعة وجلس يبيعها.فإن لم يكن يمسح السيارات،وهكذا حتى يحصل دخلا جيدا يوميا.

قبل نهاية هذا الشهر والنصف بيوم عرفت أننا سننتقل بعد أسبوعين إلى مكان آخر، وبإيعاز من الدكتورة لم يصرح لي المهندس عن المكان،لكنه شدد علي ألا أخبر البواب بشئ حتى لا يخبر المالك فيحدث الأخير مشاكل هم في غني عنها، أقسمت له أن هذا الموضوع سيظل سرا وبالفعل ظل كذلك.

لا يهم كل ذلك فقد حدث شيء لم أتوقعه أبدا، مما لا يأتي إلا مرة واحدة في بلد كبلدنا........

زوجة البواب

البواب متزوج.قضية معروفة. وقد سبق أن حدثتكم عنه، وعن أولاده، لكنني لم أحدثكم عن زوجته.والسبب أن كل ما سبق من أحداث محصور في شهر ونصف، منذ بداية عملي إلى قبل رحيلي بأسبوعين أما ما حدث بيني وبينها فقد تم في هذين الأسبوعين السعيدين.

لم تكن لي بها أي صلة، هي زوجة البواب،وأنا مجرد موظف في المركز، أراها يوميا ولا أسلم عليها.كنت مدركا لوجودها لا محالة، ولا أذكر أنني حدثت نفسي في يوم من الخمسة والأربعين يوما حتى بالتطلع في وجهها أو إشعارها بوجودي.ربما لأنها لا تجلس بمفردها، بل مع زوجها،ومن رابع المستحيلات ان أثيره ضدي.لكنني بعد ذلك اكتشفت رغم أنني كنت لا أفكر فيها، لكنني نفس الوقت كنت مدركا لموقفي هذا تمام الإدراك أي أنني كنت أجبر نفسي مريدا علي السهو عنها!

ما معني ذلك؟

معناه أن هناك فارقا دقيقا بين كوني لم أفكر فيها لأنها لا تشغل أي حيز يذكر في عقلي،وبين كوني لا أفكر فيها

لوجود عوائق مانعة من ذلك.إذا هذه المرأة احتلت - بطريقة ما - مكانا في عقلي!

الدليل الوحيد على كلامي.هو أنني رأيتها مرات جالسة مع كمال صباحا؛ فكنت أتعمد إلقاء السلام بطريقة جاذبة للانتباه.وساعتها يتخللني شعور غريب لا أدري تفسيره. وأظن أنني كنت متأكدا أنها تتطلع لي بإعجاب واهتمام. ورغم أنني كنت ألقي السلام على كمال فقط، لكنني كنت أتكلم على طريقة: "إياك أعني، واسمعي يا جارة!"

نظرة فابتسامة ١

في يوم الأول من الأسبوع قبل الأخير، توجهت للمركـــز كعادتي. فيم كنت أفكر، لا أدري، ربما كنت أفكر في حياتي الماضية أو في وجودي الذي لا مبرر له على هـــذه الأرض.لي شهر ونصف في هذا المكان.كل يوم أستيقظ في الثامنة. أذهب للمركز ثم أعود في العاشرة. لا شيء يتغير، لا شيء يتجدد. إيقاع الحياة بطيء وممل، وها أنا سائر في طريقي للمركز ببطء رجل فقد معنى كل شيء أو علم أن كل ما في الكون يـــودي إلى لا شيء.

من بعيد لمحت باب المركز الحديد مفتوحا، وهي- امـــرأة البواب - جالسة منفردة على كرسي بجوار مدخل الباب.

كانت هذه هي المرة الأولي التي أراها فيها جالسة وحدها، كل يوم تكون مع زوجها أو كمال، زاد على هذا أنها كانت تنظر ناحيتي باصرار!

كان المفروض علي أن أتجاهلها، كأنني لم ألحـــظ شـــيئا، لكنني وجدت نفسي أعدل جاكيت البدلة، والقميص، وأتأكد من هندامي.أحسست ساعتها أن هناك شيئا غامضا حـــركني تجاهها، وجعلني أنوي التصرف كما يفعل الذكر حين يـــري

الأنثي، مستغلا ما وهبني الله أو الطبيعة (وهما بمعني عند البشر) من مواهب، وكلما تقدمت أكثر ازداد يقيني من أنها تنظر ناحيتي بإصرار حقيقي. مما جعلني أضطرب قليلا، شاعرا بدهشة ممزوجة بذهول!

أصبح ما بيني وبين المركز خطوات، تأكدت فيها أنها تنظر لي بحق، وأنني لم أتلبس بخطأ، و لم أقع في وهم من أوهام الحواس.

وفي اللحظة التي تفصلني عن الدخول إلى المركز؛ التقى ناظرينا، طالت النظرة، وفي لحظة ظهرت ابتسامة على وجهينا، ابتسامة تحمل رسالة واضحة المغزي والمقصد. ابتسامة ملؤها خبث، ورغبة واشتهاء. حينما افترت شفتاها الشهيتان عن الابتسامة أضاءت عيناها ببريق شهي مخيف، وأفصحتا عن شوق، ورغبة، يتأججان في عينيها كالنار، فشعرت بشيء ما عض قلبي عضا قويا، مؤلما، ولذيذا. تباعدت النظرات ثم التقت مرة أخري، وفي هذه المرة كانت الدعوة صريحة، وكان علي أن أتصرف.

(٢)

في الداخل وجدت كمالا جالسا على كرسي، ناظرا إلى الأرض، أحسست أنه يريد أن يخبرني بشيء يؤلمه.وطبعا لم أكن في حالة تسمح بسماع همومه، لذا أرسلته ليأتي لي بطعام. وفي نفس الوقت نويت أن أخرج إليها ثانية،علّ القدر يسمح. كانت الساعة التاسعة والربع تقريبا، ومنذ أيام قال لي كمال عن البواب أنه يستيقظ في الخامسة صباحا، ليمسح السيارات، وينام في الثامنة إلى الحادية عشرة.معني هذا أنها تعمدت الجلوس في هذا الوقت بالذات لتراني، وتريني نفسها. هل هي معجبة بي، ربما لكن ما السر؟

خرجت بسرعة،بعد تأكدي من انصراف كمال، لم أجدها على الكرسي، خرجت من الباب الحديد،فوجدتها واقفة أمام باب العمارة على بعد ثلاثة أمتار،نظرت لها ثانية،وابتسمت، فبادلتني نفس ما فعلت، تأكدت في هذه المرة من تفاصيل جسدها،متوسطة الطول،ممتلئة، وجهها مدور،عيناها عسليتان شهوانيتان، وشفاهها حمراء ملتهبة بدماء حارة...هناك تفاصيل أكثر علمتها بعد ذلك...لكنني لن أثبتها..

حاولت أن أقول شيئا، واضطرب قلبي بعنف،لكنني فوجئت بسيارة تقف بالمهندس قادما من بعيد، فدخلت بسرعة حتى لا يقول إنني أهمل التليفون، وجدته بعد دقائق أمام المكتب،وصل إلى أذني صوته الناعم:"صباح الخير،إيه الأخبار؟" تكلفت الرد، والابتسام.أحسست أنه قطع حبلا كان من الواجب أن أشده لحظة مجيئه.

(٣)

لم يمكث المهندس كثيرا، لا أدري فيما جاء وذهب، بعد انصرافه جلست مع كمال وفي ذهني غرض ما.أخذت أحوم حول البواب بالكلام. وبالمناسبة كمال لا يحب البواب مطلقا لا أن الأخير يفتخر على كمال بأنه عرفه بهذا العمل، ونقل لي كمال على لسان زوجته -أي البواب- أن زوجها يفعل معك المعروف بالأمس ويفضحك في الغد،ومعنى هذا أنها غير راضية عن زوجها، وهذه نقطة في صالحي.وكل خوف كمال من أن ينشر البواب الخبر في بلدهم بأنه جاء له بعمل رائع، في البداية أخذ يحدثني عن ابن عمه الخسيس،ثم ذكر لي كلام امرأته السابق،فاصطنعت البراءة قائلا: "ياه امرأته تقول هذا!"

هز رأسه مثبتا بطريقة قاطعة.

قلت: "هذه هي نظرتي فيه..أنه إنسان غير نظيف، وحتى امرأته تكرهه، صحيح؟"

"نعم تكرهه جدا، "رد علي فكدت أرقص من الفرح.

"لكن، كنت أظن أنها تحبه".

"كيف؟"

"أراهما جالسين معا، يتكلمان بانسجام"

"لا علي العكس،كلامهم كله خلاف وخناق."

"و لم؟"

"السن وطباعه السيئة"

"هو أكبر منها؟"

"بسبع وعشرين عاما، وهو الآن في الخمسين."

والآن كل شيء واضح أمامكم. هي صغيرة في السن. قلبي شعر بذلك قبلما أعرف، ولا شك أن سني قريب منها. إذا فقد اغترت بمظهري، وأعجبت بي.هالها أن زوجها يخاطبني باحترام.والبدلة والبرفان القوي.وأنا بالنسبة لها كبطل دستوفسكي في "الروح الطاهرة" بالنسبة لعمات زوجته.أما زوجها فرجل كبير السن،لا يفكر إلا في المال فقط، كل شيء إذا يجري لصالحي.

خرج كمال ليقف مع ابن عمه قليلا،فوجدها فرصة لأشاهدها من النافذة ثانية،وأشحن طاقتي،واستعدادي بوجهها الملائكي الفاتن.

في الخفاء

مكتب الإدارة المجاور لمكتبي به نافذة بعرض أربعة أمتار. محجوبة بستائر شيش.وتطل مباشرة على مقدمة العمارة حيث البواب وزوجته جالسين دائما.

من وراء خصاصات النافذة شرعت أراقبها.كمال، والبواب منفردين بحديث.أما هي فجالسة علي كرسي، يسارها للنافذة،ويمينها للشارع، كانت تنظر إليهما قليلا، وهما يتكلمان ثم تنظر ناحية الشارع وتشرد.فمها الشهي ذكرني بعبارة لهيرمان هيسه في رواية له، يقول: how beautiful "her fresh mouth!"

أخذت أتأملها بسعادة،ولذة متمنيا وقتا سعيدا معها، أحسست أنها ستكون رائعة ممتلئة بمشاعر مكبوتة، ستتفجر كلها علي يدي.

فجأة التفتت نحو النافذة ،ولحظي السعيد، التقت عيني بعينها.انفجر الدم في وجنتيها، بالطبع أشاحت بوجهها بعيدا،

وبدا الاضطراب عليه، أحسست أنها ابتسمت بخجل، لكن إشاحتها المفاجئة دللت لي أنها كانت تفكر فيما أفكر فيه - وقد تأكدت من هذا فيما بعد - فلما رأتني فجأة خافت من افتضاح أفكارها، كما يحدث معي ومعك إذا كنا نكره إنسانا ما، وكنا نفكر فيه بالسوء، وفجأة وجدناه في وجهنا.لا شك أن الاضطراب سيبدو علينا مما لو كنا خاليي الذهن من التفكير فيه..

الإنسان الحر

رغم أنني كنت أعلم أن العقل يقول: "ارجع عما أنت فيه واغلق الستارة..هذا أحسن وأفضل،" لكنني لم آبه له،أنا مؤمن أن الإنسان كثيرا ما يخالف ما يراه واجبا وحقا، لا لشيء سوى لأنه يريد ذلك.يريد أن يكون حرا قبل أن يكون عاقلا. حرية تامة،حتى من أفكاره، ومبادئه المسيطرة عليه، خذ، مثلا، السجائر، والكحوليات، العلم أثبت ضررهما، مع هذا نخالف ما نحن متيقنون من صحته، الإنسان يخترع آلات تسير بنظم محددة ويكون هو أول من يخالف النظام، بدليل أنني كثيرا ما وجدت أطباء أسنان بأسنان قذرة أو أطباء أمراض الصدر والرئة يدخنون بشراهة!

المسئلة تحتاج لتفسير...

دستوفسكي يقول-في قبوي-: "كنت أهوي ان أسير في الطريق المعبدة التي يسير فيها الناس..ويروعني ما أجد في نفسي من رغبة في الابتعاد عن هذا الطريق" والعبارة تكشف عن صراع في نفس البطل بين الواجب وهو السير في الطريق الممهد وبين الرغبة الأصيلة والأولى في الحرية، ويهمني أن تلاحظوا الكلمة يروعني إلى نهاية الجملة.فرغم أنه يفرض نظاما

معينا على نفسه إلا إنه لا شعوريا غير راض لا عن هذا المنطق، ولا عن الحكمة، ولا عن السلوك القويم. ومن منا لم يجد في نفسه لرغبة في مخالفة العقل، وكل هذه الأسماء، عنادا وتحديا!

لكن ما هي الحرية التي نريدها جميعا بالفعل؟

بعيدا عن سخافات المفكرين وثرثرهم.الحرية التي نريدها هي الحرية المطلقة بكل ما تعني هذه الكلمة من معان حرية غير محدودة بحد ولا شرط.حرية تبيح لك أي شئ تريده،وفي أي وقت، وبأية كيفية، الحرية التي كان عليها كاليجولا، يفعل ما يشاء مهما كان غريبا وشاذا وغير عقلاني ولا إنساني المهم أن يلبي حاجته الداخلية!

هذه هي الحرية التي يريدها الإنسان، لا حرية "ستيوارت مل"أن تفعل ما تشاء دون المساس بحرية الآخرين. والعبارة متناقضة، كما نرى، فكيف أكون حرا إذا تعارضت حريتي مع حرية الآخرين فامتنعنا جميعا حتى لا تتعارض الحريات، أنت بهذا تقيد لا تحرر.فأنا حر حرية مشروطة، ونحن في داخلنا لا نريد تلك الحرية!

بالطبع تلك الحرية المطلقة حلم بعيد، كما نعلم أنها كانت حال الإنسان،قبل أن يكتشف أنه كائن ضار، ويجد نفسه

بحدود وقوانين،لذا فمن أجل استمرار بقائه ضحى بحريته، فصار الرجوع إليها مستحيلا.لكنه بعد ذلك عاني،وما زلنا نعاني كلنا من فقدان الحرية،ولا زالت هي مشكلة التربية كيف تستطيع أن تعود الإنسان على فقدان حريته،على أن تجعله يفعل ما تريد لا مايريد بزعم أنك تعرف مصلحته، ومنفعته أكثر منه،كيف تعمي بصره،وتحجم إرادته،كيف تخلق في نفسه الخوف من المحاذير الوهمية مما لا وجود له سوى في مخيلة الإنسان!

هناك شئ عجيب نلاحظه في أنفسنا، هو أننا نشعر بسعادة شديدة إذا كنا في مكان لا يرانا فيه أحد.وإذا أردت أن تري إنسانا غير زائف فراقبه في هذه الحالة.كان لي صديق يخلع ملابسه كلها ويجلس عاريا عن الثياب متأملا جسده في المرآة!

لم أكمل لكم ما حدث لقد نظرت لي ثانية، رغم ما ظهر عليها من مجهود شديد بذلته في مغالبة نفسها، وها هي الآن تخلس النظر نحوي. ابتسمت لها فابتسمت.كدت أموت من الفرح ومن الطاقة التي تفجرت في عروقي. هناك أوقات يكف فيها العقل عن العمل وتعمل الغريزة.أرسلت لها قبلة في الهواء. كيف فعلت؟لا أدري، ولا أريد أن أدري. المهم أنني فعلت.

ويبدو أن القبلة كانت أكثر مما تحتمل.فما ظهر علي وجهها من علامات الأنوثة هزني من أعمق بقعة في نفسي.

كنت سأبادر بشيء آخر لولا أنني لمحت كمالا ترك ابن عمه، متجها للمركز!

في المساء

لا شك أن دخول كمال إلى المركز أحبطني أو أنزلني فجأة من العلياء للقاع.وزاد إحباطي أنني، بعد انتهاء اليوم،عند خروجي من المركز ذاهبا إلى البيت لم أجدها جالسة.ولا أعرف لم انتابتني حالة حزن جعلت كل شيء باهتا في عيني. بدأت من لحظة دخول كمال ولن تنتهي إلا بعد مجهود عنيف مني، خاصة أنني من ذوي المزاج السوداوي الكئيب الذي يجد لذة خفية في الحزن، واليأس، والألم!

كنت أعرف أن في داخلي صراع شديد، بين طرف أبوي متمثل في الضمير أو الخوف كما أوضحت، وطرف فَتِيٍّ يريد ويرغب،ولا يبالي على أي المهالك وقع، وكل طرف له حجج منطقية. الأول يري أنني ممن إذا أرادوا شيئا و لم يبلغوه تعكرت حياتهم.فضلا عن نوبات اليأس التي ستفترسني إن لم أبلغ ما أردت.

والثاني يرى أنها شابة وافرة الأنوثة، ثم إنني لن أجد امرأة أفصحت عن رغبتها فيّ،كما رأيت في عينيها،وفي اختلاجات وجهها.ولايزال يذكرني بأنني شاب،أعزب،فضلا عن أنني ضيعت فرصا لا تضيع.

سأحدثكم قليلا عن فكرة الصراع.ولتكن السطور الأخيرة السابقة هي محل الحديث.فرغبتي في المرأة،وخوفي من هذا الفعل، هما طرفا الصراع.وكل طرف منهما أناني أنانية تامة. بمعنى أن كل طرف منهما يريد الانتصار لنفسه،والقضاء علىي منافسه. لذا يشتجر الطرفان فيما يسمي بالصراع، حتى يستنزف أحدهما الآخر فيموت،ويبقي طرف هو الغالب. حينها تجد نفسك قد استقر بك الأمر على رأي بعينه.

والحياة في رأيي لا تؤهلنا لأن نتعاون أبدا،وإنما لكي نتصادم، كيف هذا؟

كل واحد منا له طباع تختلف عن الآخر.فأنا عصبي، وأنت بارد.أنا مهرج وأنت جاد.وكوننا مختلفين جدا مع اعتبار الأنانية التامة، والرضا عن النفس، يجعل كل واحد غير راض إلا بما هو عليه، فأنت قد تعقل الكثير من الكوارث،وقد لا تستغرب من أبشع الحوادث،لكنك لا تعقل أبدا أن فلانا يضحك بطريقة تخالف ضحكك!!!

فأنت تريد من الآخرين دائما أن يكونوا مثلك، لأنك ترى نفسك مترها،ولأن هذا لن يحدث أبدا - أي أن ينقلب الآخرين عن طباعهم إلى طبعك - سيصدمك هم لأنك لن ترضى عنهم وهم بدورهم كذلك،وهكذا يتولد الصراع ويبقى فلا محل للاتفاق بين البشر أبدا!

اليوم التالي

في اليوم التالى اتفق معي كمال على أن يبحث عن عمل غير عملنا هذا، لأن المرتب لا يعجبه، فضلا عن أنه اعتاد عن اقتضاء أجرته باليوم،وهو نظام مريح جدا له.وافقته على الفور بل سهلت الأمر إلى أقصي حد بمعنى أنني تواطئت معه أن يستأذن أربع أوخمس ساعات يوميا ليبحث عن عمل، فإذا وجد عملا ترك هذا، وإذا سأل المهندس عنه، أخبرته أنه ذهب ليزور أحد أقاربه. لم أكتف بهذا بل جئت بالصحف المختصة بالإعلان عن الوظائف.همي من ذلك أن أصرفه عن المكان حتى يخلو لي الجو،لذا إذا وجدت إنسانا يلح في مساعدتك بشيء فلابد أن يريد من ورائك شيئا!

وجدت له عملا في جريدة، فتحمست له وأوهمته أنني أنا الآخر سأبحث عن مكان آخر،لأنني سئمت المكان، وأصحابه، انطلي عليه الأمر فذهب، بعد أن كتبت له العنوان، وبقيت. فتحت نافذة الإدارة قريبا فوجدها في نفس مكان الأمس لكن أقرب قليلا إلى النافذة سلمت عليه مبتسما، فردت بابتسامة عذبة ماكرة.ورغم أن بيني وبين ما أريد منها صحاري شاسعة، لكن حسبت أن الرغبة المشتركة، ستختصر كل هذا. لاحظت أنها مضطربة جدا.رغم أن زوجها، وأطفالها، نائمون،

والشارع هادئ جدا.خطرت في بالي جملة تختصر كل هذا العناء، قلت لها: "لا تخافي، لن يلحظ أحد شيئا" قلتها وابتلعت ريقي من الخوف. نظرت لي نظرة غريبة. تجاوزتها بابتسامة هادئة،وأردفت:"إذا تحلينا بالصبر والذكاء"لاحظت أنها مشوشة جدا،وأنفاسها تتلاحق كأنها خارجة من سباق أميال. أخذت أفكر في جمل سريعة تشف، ولا تجرح، أنا لست مستوثقا من رد فعلها بعد..قلت: "هل أنت خائفة؟" فهزت رأسها إيجابا بطريقة طفلية بريئة.

"أنا لا أريدك أن تخافي من شيء مادمت معي" لاشك أنا كاذب لأن خوفي أضعاف خوفها، فضلا عن أنني لا أشعر تجاهها سوي بالرغبة الجسدية دون أي شيء،ولا أجد تلك الرغبة دافعا علي التضحية بنفسي من أجلها.

"أنا حريص عليك أكثر من حرصي علي نفسي..هذه هي الحقيقة" وها أنا أكذب ثانية.

أحسست أنها ستهرب..قلت لها:"وأنت؟" لم ترد.

"لا زلت خائفة؟"

"قليلا"

"مما؟"

"يعني" وبدأ الغنج يظهر.

"يعني ماذا؟"

"مش عارفة"

"خايفة مني؟"

"آه" قالتها بخبث.

" لم؟"

ابتسمت بدلال شديد، أحسست أنني سأخرق النافذة أريد أن أقضم شفتيها.

"هل أنا مخيف؟"

"آه"

"بالعكس انا طيب جدا"

"تؤتؤتؤ" وهزت رأسها بالنفي، أحسست أنني أدلل طفلة.

"يعني أنا شرير؟"

"أيوه"

"أنت جعلتني شريرا" خاطبتها.

"كيف؟" سألتْ كمن يريد أن يسمع إجابة بعينها.

ابتسمت لها و لم أعلق.

سألتها إن كانت قد خافت بالأمس عندما أرسلت لها قبلة، فقالت إنها هلعت لكنها كانت سعيدة، قلت إنني كنت أسعد

بكثير، أخذت أثرثر معها، محاولا أن أجنح بالكلام ناحية الحب وما يلحق به. قالت إنها تعمدت بالأمس انتظاري، وأنها معجبة بي من أول يوم جئت فيه المركز، وأنها غير سعيدة مع زوجها.وكلاما كثيرا لا أذكره.

سألتها أن تدخل قليلا،سكتت.رجع الاضطراب إلى وجهها، سألتني عن كمال، فأخبرتها أنه لن يرجع قبل ساعتين على الأقل...

فجأة رن جرس التليفون.أحسست أن ضغطي انخفض، ذهبت لأرد، كان المهندس تذكرت وأنا أكلمه أن كمالا في مشوار، حافظت على اتزان صوتي،وأبطأت أنفاسي، قال إنه قادم الآن، هرعت إليها لأخبرها، قالت إنها ستدخل،بدت رائعة بحق، أخبرتها أنني أريد تقبيلها، تورد وجهها، قلت لها: "ادخلي دقيقة لا أكثر،" نهضت، ونظرت حولها بقلق، اتجهت نحو باب المركز،دق قلبي بعنف،وجدتها أمامي بعد ثوان، أحسست بخوف شديد من الافتضاح،أجلستها على كرسي،وجثوت علي ركبتي، غير مبال بركبتي البنطلون اللتين أصبحتا في لون البلاط.توقف ذهني عن العمل للحظات. كنت فيها مع هذه الأنوثة الطازجة المتفجرة، التصقت بها حتي

شعرت أني غبت عن الدنيا للحظات.أحسست أنها كانت تريد مني أضعاف ما أردت منها، فجأة رن جرس التليفون. رفعت السماعة:"ألو"كان المهندس، قال إن الأستاذ فلان، وفلان، قادمون، وأمرني أن أهيأ المركز.أغلقت السماعة ونظرت لها، كانت ساكنة كأنها نائمة أو سكرانة قد ثقل رأسها من وطأة الخمر، تنظر لي في هدوء،وعينها تدعوني، تحثني، تقتلني، أحسست أن الشهوة طغت على رأسي، وشلت تفكيري، قمت وقلبي يكاد ينفجر من عنف النبض، أغلقت باب المركز بالعند في نفسي، وفي زوجها،وفي المهندس.غير عابئ بأي شئ مهما كان.كل شيء يهون أمام تلك اللذة.

(٢)

لم يأت المهندس في هذا اليوم، ولا واحد من المدرسين، في نفس اليوم اتصلت بالمهندس وقلت له إنني لم آخذ أجازة منذ شهر ونصف وأنا في حاجة إلى راحة. لم يأت كمال حتى مشيت،سار كل شيء على أحسن مما أردت.وفي البيت جلست مع نفسي مكدودا مكتئبا،وكما يقولون راحت السكرة وجاءت الفكرة.كنت متأكدا أن الأيام القادمة ستكون عذابا ملحا، مع هذا اندفعت إلى الإثم بكل قوتي، لا لشيء سوي أن أكون مخطئا آثما. لأن الخطأ كما أسلفت هو بابي الوحيد نحو حياة جديدة، وروح صافية. الإثم يدفعني إلى معانقة الله بقوة.كأنني أجد فيه دافعا قويا للرجوع إليه..وإذلال نفسي أمامه، وقتلها بكاء وتعذيبا.أظل على هذه الحالة حتى تأتي لحظة الانجلاء،فأشعر أن روحي طهرت كالحديد إذا صفي بالنيران.

وهذه هي حالى دائما..كنت إذا مرت علي فترة شعرت فيها ببعد المسافة بيني وبينه، بحثت عن شيء بشع أرتكبه، حتى أتعذب به إلى درجة المرض، ومع العذاب والنيران المسلطة على النفس يأتي الغفران.

زاد على هذا أنها بعدما انتهينا، انتبهت لنفسها وقدرت ما هي فيه فخرجت بسرعة دون أن تبادلني كلمة واحدة، وبالطبع لم أستطع أن أقول لها كلمة، لأنني أنا الذي جررتها نحو ما فعلنا!

مفاجأة

بعد يوم الإجازة ذهبت كعادتي،أمام المركز لم أجد البواب،ولا امرأته،وجدت كمالا في الداخل،استقبلني استقبالا حافلا،وسألني عن الأمس، جلست أثرثر معه بنصف عقل تقريبًا، والنصف الآخر لا أدري أين كان!

فجأة رن جرس التليفون.."ألو كيف حالك يا أحمد؟"

"الحمد لله يا باشمهندس"

"عندي لك مفاجأة"

سألته بلهفة، فقال إنهم عثروا على مكان آخر، موقعه رائع، وسننتقل إليه الليلة، وشدد علي ثانية ألا أخبر البواب.

كانت فرحة كمال أكبر بكثير من فرحتي لأنه أخيرا سيترك ابن عمه أبدا، وتوقعنا أن البواب سيجن جنونه إذا علم بهذا الانتقال المفاجئ، لأن المهندس يغدق عليه بغير حساب، وكان ما توقعنا، فعندما أتى المهندس ليلا، وقف البواب مذهولا، فاقدا الشعور بالعالم كأن المهندس قد قتل ولدا من أولاده!!

جاءت سيارة كبيرة، نقلت كل ما في المركز مرة واحدة، وقفت أمام المركز منتظرا أن ينتهي كل شيء، وبجانبي وقف المهندس الجبان يبرر هذا الانتقال المفاجئ للبواب،كأنه ارتكب

جرما، لم أجدها في هذه الليلة،أحسست برغبة في النظر إليها للمرة الأخيرة. أين هي؟ سألت نفسي.

جاءني المهندس وأعطاني سرا العنوان الجديد، قال: "غدا في ميعادك تكون هناك" فقلت: "أكيد" قال إنه ذاهب مع العمال إلى المكان الجديد،فرددت بأنني ذاهب للبيت.ودعته ثم ذهبت مودعا المكان،دون حتى أن أنظر إليه النظرة الأخيرة.

المكان الجديد

واسع،واسع،واسع.شقة كبيرة جدا،كانت في الأصل مركزا تعليميا ناجحا،لكن صاحبها هجر المركز لأسباب مجهولة للجميع،البعض يقول أصابه اكتئاب،والبعض قال إنه سافر إلى الخارج.قيل لي عنه أنه كان غاية في الحزم والشدة مع المدرسين،يعاملهم كأنهم موظفون عنده،واستطاع بفضل حزمه أن يُنجح المكان بطريقة ملحوظة،كما علمت أن هذا المكان كان منجما بالنسبة لفخري،وأنه هو الذي دفع المهندس ليستأجره،حتى يعمل المكان مرة أخرى،على سمعة المكان القديم، وكأن شيئا لم يكن!

في اليوم التالي ذهبت في ميعادي،قلت للمهندس إنني لن استمر بهذه الطريقة،عمل دائم دون راحة، وأن عليهم أن يأتوا معي بريسبشنست آخر كما وعودني في بداية عملي معهم، وكان طلبي هذا لأنني أعمل لمدة ١١ ساعة بلا يوم واحد للراحة.

في نفس الليلة اتصل بي :"هناك فتاة ستأتي للعمل معك. من الصباح حتى الثالثة،وأنت من الثالثة إلى العاشرة "شكرته بحرارة،كنت أريد فترة المساء، لأن لي أشغالا أخرى بالصباح،

أخبرت كمالا بما حدث،فتغير وجهه،هو الآخر يريد من يساعده، لم أبال به، هل يريد للرؤوس أن تتساوي!

قلت في نفسي انتهت كل المتاعب، لكن من يعلم ما يأتي به القدر!

عداء خفي

عندما علمت أن فتاة ستشاركني العمل،سعدت ولاشك...

في الصباح تهيأت،واعتنيت في نفسي.تـــخيلت لها شكلا جذابا، جميلا.ليلة الأمس كتبت كلمات أغنية لفرانكي فالى في الكشكول الخاص بالمدرسين كي تقرأه في الصباح.كتبتهم ثم شطبت عليهم، حتى يُظن أن هذا الكلام قديم.

قبل دخولي المركز اضطربت،وفقدت السيطرة على نفسي، وهو شعور غريب تجد نفسك معه،كأن كل عضو من أعضائك،انفصل عن باقي جسدك وصار يعمل بمنطقه الخاص.

عندما دخلت صدمت بشكلها وبابتسامتها الصفراء التي أظهرت لي أنها صدمت فيّ هي الأخرى،وبنظرة عينيها الفاحصة كأنها تقول:"هو ده."وبصراحة أرغمتني خيبة الأمل التي قرأتها في عينيها على النظر في الأرض،وأشعرتني أن البداية غير مبشرة على الإطلاق، بالضبط شعرت أن نظرتها وضعت أطنانا من الأثقال على قلبي، وأنني أحاول قبل الكلام معها أن أتخلص من هذه الأثقال دون جدوى.

هي نحيفة، متوسطة الطول، وجهها أبيض أملس ناعم يشبه مثلثا مقلوبا،أنفها حاد مدبب،وفمها واسع بشفاه رسحاء

كأردافها- قليلة اللحم - وأسنان صفراء مفلجة، فم يستحق البصق لا القبل!

ولا أخفي أن تثليثة وجهها مع عينها الزرقاء وأنفها الصغير، جعلته - أي وجهها - أشبه بوجه ضفدعة بلهاء أو رأس حيوان منوي!!

سحبت كرسي، وجلست أمامها.أخبرها أنني زميلها في العمل،فرحبت بي.طبعا هي كانت تعرف من أنا من دخلتي عليها، لكنها مقدمات سخيفة لا فكاك منها.وجدت كمالا جالسا على أحد الكراسي،لا أعلم لم شعرت من تعبير وجهه أنه سيتغير معي إلى الأسوأ، وسيحاول بكل الطرق أن يثبت لها أنني وهو متكافئان.وحدث بالضبط كما توقعت. المضحك أنني لم أجد طريقة أقول له:"اشبع بها أنا لن انافسك فيها!"

-نهض ليسلم علي،لكن كأنه صديق حميم،صافحته بجفاء،حتى أسد عليه السبل،وبالطبع لاحظ جفافي فجلس مستكينا دون كلمة.

حمدت الله أنني تصرفت معه بهذه الطريقة،أما زميلتي الضفدع،فمن ثرثرتي معها علمت أنها أكبر مني بعامين،وأنها كانت تعمل في هذا المركز من قبل،أي المركز القديم، بالتدريج تحول أسلوبها معي إلى الاستخفاف واللامبالاة،أنا أيضا

وجدت نفسي أكلمها بقرف شديد،وتحول أسلوبنا إلى الأسوأ كدليل على خيبة أمل كل واحد منا في الآخر.

كان موقفا عجيبا أن تجد نفسك، تكلم إنسانا بكره شديد،رغم أنك لم تعرفه ولا هو يعرفك،لكنها عدواة انتويناها من النظرة الأولى.

مقدمات ونتائج

يجب في البداية أن تعلموا أن هذه الفتاة بما أنها عملت في نفس المجال لمدة عامين؛ فهي أكثر خبرة مني،وأنها تعرف ذلك، وأنني أعرف ذلك، وفخري يعرف ذلك،والمهندس لا يعرف هذا ولا ذلك!

ويجب أن تعلموا ثانيا أن المهندس صار يكرهني؛ لأنني أبلغته أن المدرسين يجتمعون في المركز كل ليلة دون علمه، وأنهم غير راضين عنه أبدا.لكنه لم يقتنع بكلامي،لأنه لم يرد أن يري إلا ما في رأسه.وبالطبع صار يكرهني بشدة، لأنه منحني حق المؤاخذة، وإبداء الرأي.وأظن أنني لّمحت لكم بهذا من قبل.

ويجب أن تعلموا ثالثا، أن فخري استغل أولا وثانيا في توغير صدر المهندس من ناحيتي.وأن فخري وآخرين يتآمرون لإقصائي أنا وكمال من المكان.لأن هناك نفرا ممن كانوا يعملون في نفس المركز السابق يريدون أن يعملوا مكاننا.

ويجب أن تعلموا رابعا أنني جئت المكان الجديد يوم الأحد وتركته في الأحد التالى أي بعد أسبوع.

وفي يوم الخميس قبل مغادرتي بثلاثة أيام،حدث اجتماع مفاجئ، من أجل تتميم كل شيء قبل الافتتاح.في الثالثة بعد الظهر جاء المهندس وأمه.بعدها فخري ومساعدته.وهي فتاة قصيرة،بضة، هادئة. ولسانها كأنه مسلول من حلقها. أي أنها لا تتكلم مطلقا.عرفت بعدها أنها كاتمة سره. لذا فهي تحرص على أن يكون كلامها داخلي.وهي مخلصة لفخري بشكل عجيب،فهي تعتبره -في رأيي- كأبيها،وهي تظهر سعادة كبيرة إذا خصها بحديث.لدرجة أنا تهز رجليها بجذل كالأطفال.وتأكدت من هذا عندما علمت أنها يتيمة، ومن هنا فهي تعامله كأنه أبوها بحيث تحولت حبها لأبيها إليه،فصار حبا تعويضيا، فضلا عن كونها مقتنعة به كرجل. الدليل علي هذا أنها تعتبرني طفلا، هي لم تقل لي ذلك، لكن نظراتها كانت تقول ذلك.

ومثل هذا النوع من النساء لا يرتبط إلا بكبار السن، أي أنها وجدت في فخري أباها، وستبحث في غير فخري عن فخري وهكذا.ولاحظت أنها عندما تجلس معه منفردة. تظهر عليها السعادة،ك أنها استطاعت بشكل أو بآخر حيازة هذا الرجل لها!

هو بدوره عاطفته نحوها أبوية خالصة،فحين يكلمها يتحول إلى مخلوق رقيق مهذب.ويحنو عليها بنظراته وكلماته. كأنها قطة صغيرة أو دمية لا تعقل.

نرجع إلى هذه الجلسة المشئومة.أخذ فكري ينحو بكلامه علي، معرضا بأنني كسول،لا أفعل شيئا.وأن هناك راتبا يصرف فلابد من عمل مقابل.لاحظت أن المهندس والدكتورة راضيان. لم ينس فخري كمالا،فهو الآخر يستحق الطرد، ولأول مرة شعرت بحب نحو كمال لأنه شريك معي في المصيبة!

طلب مني فخري بسخرية مهينة أن أبحث عن خطاط، فذهبت وأنا شاعر بأن الدنيا تسود من حولي. لم أجد الخطاط فرجعت بسرعة،لحظة دخولي سكتوا عن الكلام فجأة.بالطبع يتكلمون علي.آخر ما التقطته أذني كلمة الدكتورة:"شكله صغير، ماينفعش" فكانت هي آخر من تكلم وأول من سكت.تبعها الجميع.

تشوشت الوجوه للحظات، واضطربت.رغم هذا تغابيت،وأخبرتهم أنني لم أجد الخطاط، تعلقت عيونهم بي،كأنهم يركبون ما سمعوا من الكلام علي،ولاحظت نظرة احتقار صارخة في عيني زميلتي الضفدع، فكدت أبكي بسبب هذا العداء المفاجئ.بعدما غادروا حكيت لكمال عما حدث وأخبرته أنني سأغادر المركز قريبا جدا جدا.

ووليت ظهري

صباح يوم الجمعة اتصل بي المهندس، وأخبرني أنه يريدني الآن..ذهبت إليه..وجدته يخبرني بأن المواعيد تغيرت، بناء على طلب الأستاذ فخري، لأن فترة الضغط هي المساء،وبما أنني غير مدرب والضفدعة مدربة،فهي أجدر بتحمل المسؤلية مني. قلت بسخرية:"كنت أعلم أن هذا هو ما سيحدث"

رد بقلة ذوق: "إن كان لا يعجبك فأنت حر،"ورغم قلة ذوقه، إلا أنه كان مضطربا كأنه يخشى ردي،كنت أعلم أن فخري ملأ رأسه بالكلام جيدا، وأنه يتكلم على طريقة: "أنا حافظ مش فاهم."لم نتفق على شيء، بعد انصرافه جاء فخري. فسألته عن سر طلبه العجيب. رد علي: "لا لا لا نحن في حاجة إلى رجل في المساء، لا تقلق كل شئ كما هو"

"والمهندس؟"

ضحك قبل أن يقول: "المهندس ده عبيط، على العموم لا تشغل بالك".

فقررت أن أنفذ ما قال فخري حتى يصطدم بالمهندس، وأنقم لنفسي من الأخير..في الثالثة– من نفس اليوم- جاءت

الفتاة. أخبرتني أن المهندس أخبرها بكل شيء، فبلغتها كلام فخري حرفيا.سألتني إن كنت سآتي غدا مساء،قلت لا سآتي صباحا لأخبر المهندس،ويوم الأحد آتي مساء،كما طلبت منها بأدب أن تسمح لي بالاتصال بها مساء - أي في نفس اليوم - لتخبرني بما قالوا؛ فوافقت بامتعاض.

في المساء اتصلت بها فأخبرتني أن فخري قال للمهندس: "أحمد هذا لا يعرف المهنة، وسيكون خسارة علينا.ويجب أن نجعل الفتاة في المساء وإن لم يعجبه فهو حر، البلد مليئة بالعاطلين! "بالطبع صدمت لأنني لم أتوقع أن تسير الأمور على هذا النحو. شكرتها و أغلقت.

صباح السبت أعلمت كمالا أنني سأغادر المركز فعلا. وبالفعل عمندما جاء المهندس أخبرته بنيتي وبأن جو المركز هنا غير نظيف،وأنني لا أحب هذا،وبالطبع أنا أقصد فخري وعصابته.كما أخبرته بأنني سأبقي اليوم وآتي غدا لأخذ حسابي. فقال إنه سيترك المال مع كمال .

يوم الأحد.دخلت المركز، لم ألق السلام علي المهندس ولا الضفدعة سلمت على كمال بحب حقيقي.وقلت له بصدق:

"إن كنت تريد شيئا فلا تردد في الاتصال بي،"فصافحني بحرارة، وأعطاني حسابي.قبل أن أمشي نظرت للمهندس باحتقار، ثم انصرفت، وكان هذا آخر عهدي بالمكان.

تمت في

١٣-٨-٢٠٠٧